جزء
٥

أسرار النفس البشرية

بقلم

سيد تقي سيد حسين الموسوي

حفظه الله

أسرار النفس البشريّة
الجزء الخامس

للمؤلف
سيّد تقي سيّد حسين الموسوي
حفظه الله

www.taqimusawi.com

0096899419461

صندوق البريد ٩٢٠

الرمز البريدي ١١٤

سلطنة عُمان

المصادر

- كتاب معاذلة النّفس وهي صحيفة من صحائف نبيّ الله إدريس عليه السلام.
- كتاب سرّ البشريّة أو السّعادة والبقاء للشيخ صادق العنقا قدّس سرّه.
- كتاب السَّحر للدكتور يوشي ميكي مايدا الياباني.
- كتاب ألف باء العرفان للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب السّموات السّبع للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب هكذا تكلّم عيسى عليه السلام للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب خمسة من العرفاء للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب أسرار النّفس البشريّة الجزء الثالث للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب أسرار النّفس البشريّة الجزء الرابع للمؤلف سيّد تقي الموسوي.

المحتويات

المصادر ٥
المحتويات ٦
العرفان بالجميل ١٠
المقدّمة ١١
كلمة التوحيد كيمياء البدن والرّوح ٤٤
كيمياء ألست بربّكم قالوا بلى ٤٧
يقظة الفطرة ٥٠
يا نفس تخلّقي بأخلاق الله ٥٣
لزوم السّير والسّلوك ٥٦
يا نفس استثمري كنوزك ٥٩
يا نفس لا بدّ أن تصلي إلى ماهيّتك الأصيلة ٦٢
يا نفس اكدحي إلى ربّك كدحًا فملاقيه ٦٥
وأنشأناه خلقًا آخر ٦٨
مالي أراكم أشباحًا بلا أرواح ٧١
رتبة النور والصفاء والعدل ٧٥
الابن الضالّ يرجع إلى أصله ٧٩
الدرّة البيضاء ٨٣

سقوط أردية الموت ٨٦
الصبر مفتاح الفرج ٨٩
العصافير المغرّدة لا ترضى بزقزقتها ٩٣
ضالّتي في كنانتي ٩٧
ماء الحياة ١٠٠
وسقاهم ربّهم شرابًا طهورًا ١٠٤
السعادة حاجة ملحّة في فطرتك ١٠٧
لماذا التلذّذ مشوب بالمعاناة ١١١
الصوم عن اللذّات الجنسيّة ١١٥
برازخ الرّوح ١١٨
ما هي المعاصي والذنوب ١٢١
جدول الذنوب ومكارم الأخلاق ١٢٥
مواعظ يحيى بن زكريا ١٢٩
نظم السّلوك وفرن الرياضة ١٣٢
معالم الهداية ١٣٦
الحقارة الذاتيّة ١٤١
العقد النفسيّة ١٤٥
جدول الذنوب وحوافزها ١٤٨
نظم السّلوك ومرآة النفس ١٥٢
أثر الدعاء على الإنسان ١٥٥

حماران يتشامّان..... ١٥٧

صقل مرآة النفس ١٦٠

حديث عنوان البصري..... ١٦٤

نظم السّلوك والعقبة الكأداء ١٦٧

التمركز على القلب..... ١٧١

التَّجَلِّي الذَّاتِي ١٧٤

قُدْسِيَّةُ الزُّلْفَى ١٧٩

غوامض اللاوعي ١٨٢

إلهي تولّني بسكينتك وصبغتك..... ١٨٦

نفي الخواطر ١٨٩

مهزلة غير عقلائيّة..... ١٩٣

القلب السليم ١٩٦

العرفان بالجميل

أنا مدين جدًّا في كتبي الأخيرة، وعلى الخصوص هذا الكتاب (أسرار النفس البشريّة)، وأيضًا كتبي السابقة (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) و (ورفعناه مكانًا عليًّا) و(بوذا ونور الملكوت) و(هكذا تكلّم الله على لسان داود) و (هكذا ناجى داود ربه) و (كتاب محاورتي مع الشيخ علي المياحي) و (كتاب المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة) الذي أُسّس بناءً على أسئلته، ذلك للسيد محمد الشوباصي من سوريا، حيث زوّدني بالمراجع القيّمة وساعدني كثيرًا في إتمام كتبي ومراجعتها وتصميمها ونشرها إلكترونيًّا عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت. فالشكر له موصول لما آثرني به من خدمات قيّمة لا أنساها، وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقه في حياته في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّه سميع مجيب الدعاء.

وأيضًا أشكر زهير من دبي في الإمارات العربيّة المتحدة وجهاد من البحرين لوضع موقع إلكتروني لكتبي، ولا أعرف حقيقة كيف أشكرهما على مأثرة الإيثار التي يتحلّان بها رغم مشاغلهما الكثيرة. فقد ساعداني كثيرًا في نشر كتبي وسهّلا للقارئ العربي الوصول إلى هذه الكتب. فالشكر موصول لهما إلى الأبد وأتمنّى لهما من كلّ قلبي التوفيق في الدنيا والآخرة.

المقدّمة

أقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ التّوحيد مراتب، وإنّ التّوحيد ظهور وبطون، وأدناها كلمة (لا إله إلّا الله) باللّسان، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا >>. وبمحض أن يتلفّظها الشخص يبدأ هناك في داخله كيمياء جديد في تمام جسده وروحه، يطهّرهما من الرّجس والدنس.

يا نفسُ ! إنّ كلمة التّوحيد كيمياء البدن والرّوح، لأنّها بداية يقظة العهد والميثاق في فطرتنا، حينما سألنا ربّ العالمين في عالم الذرّ: << ألستُ بربّكم ؟ فقلنا: بلى ! >>.

يا نفسُ ! إنّها عمليّات كيميائيّة تحصل في جسدكِ وروحكِ، لو أطّلعتِ عليها لرأيتِ العجَب العجَاب !

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - ثقي يا نفسُ ! إنّه كيمياء العهد والميثاق، الذي هو عهد العبودية لله ربّ العالمين، والإقرار بربوبيّته عزّ وجلّ، يبدأ بالتفاعل العجيب في داخلكِ، وتنقلب فطرتكِ انقلابًا عظيمًا، لأنّ هذا العهد والميثاق هو في بواطن فطرتكِ.

يا نفسُ ! لقد أخرجكِ إبليس من الصّبغة الأساسيّة فيكِ، ألا هي صبغة العبوديّة، وصوّر لكِ، زورًا وبهتانًا، عالمًا بعيدًا عن طهارة التّوحيد، وغريبًا عن فطرتكِ، فأصبحتِ تفكّرين تمامًا كما يفكّر إبليس، بالكبر والغطرسة، وأنّكِ كلّ شيء، وأنتِ خير من الكلّ، وقطعِ كلّ علاقاتكِ بالله العليّ العظيم، من اللجوء إلى الله، والبكاء على عتباته، والتوسّل إليه، والخضوع والخشوع له.

يا نفسُ ! فمن منّا يا ترى ! لا يفكّر أنّه خير من الآخرين، وأعلم من الآخرين، وأفهم من الآخرين !

يا نفسُ ! إنّ إبليس هو الذي يوحي إليكِ بكلّ ما هو مضادّ لصفات الله وأسمائه الحسنى ، من الشحّ والبخل، والكبر والغرور، والشّبق والشّهوات واللّذّات، والأنانيّة وحبّ الدنيا، وحبّ المقام والعلوّ، والادّعاء والتّفاخر وما غيره.

يا نفسُ ! إنّ الله هو الجّواد الكريم، والشّيطان يخوّفك من الفقر والفاقة، ويأمركِ بالبخل والشحّ. هو القادر على كلّ شيء، وهو الذي يفعل ما يشاء بحكمته، ويحكم ما يريد بعزّته، والشّيطان يوحي إليكِ زخرف القول غرورًا وزورًا، إذ ليس فيكِ إلّا الضّعف والوهن، ولا حول لكِ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

يا نفسُ ! كبركِ وغروركِ هو من أجل أن يغطّي ضعفكِ و وهنكِ. أليس من الأفضل أن تقرّي بضعفكِ و وهنكِ أمام الله ! وأن لا تدّعي شيئًا ليس فيكِ ! اخرجي من عالم الكذب والنفاق إلى العالم الوسيع من الصّدق والحقيقة العظمى. كوني حيث موقعكِ من الوجود، لم تكوني شيئًا مذكورًا، وخلقكِ من نطفة أمشاج يبتليكِ، فجعلكِ سميعة بصيرة.

يا نفسُ ! هو منزّه عن الشّهوات. فما حاجته إلى الشّهوات، واستمراريّة الجنس، كما هو في البشر والحيوان والنبات ! فهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد. ولم يكن له صاحبةً ولا ولدًا. إنّما الشّهوات في المخلوقات التي عندهم حواس، والله سبحانه وتعالى خالق المخلوقات، وهو منزّه عن الحواس والأدوات، يخبر لا بلسان ولهوات، ويسمع لا بخروق وأدوات، يقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحفّظ، ويريد ولا يضمر، يقول لمن أراد كونه: كن، فيكون، لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع،

وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه. لا يلويه شخص عن شخص، ولا يلهيه صوت عن صوت، لا يحويه المكان لأنّه لبكلّ مكان، ولا يحويه الزّمان لأنّه في كلّ حين وأوان، ومع كلّ إنس وجان.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! اعلمي هو الوجود الأصيل وحده، وغيره تعيّنات ومظاهر واعتباريّات، فإذا علمتِ ذلك واستوعبتِه خير استيعاب، تبيّن لكِ أنّ غير الله من جنس الشّرك، ورجعتِ بكلّ وجودكِ إلى الوجود الأصيل، واستغنيتِ عن الوجود الاعتباري، الذي هو سراب وأوهام، ومفهوم خاطئ، يختصّ فقط بمستوى إبليس السّافل، حيث كلّ ما عنده هو الافتراضات والاعتباريات والتعيّنات والمظاهر، فقد حجبه الله عن الإصالة في الوجود. فهو الشّرك المطلق.

يا نفسُ ! يا ليتكِ تخلّصت من المفاهيم الاعتباريّة، ورجعتِ إلى مفهوم الإصالة في الوجود ! يا نفسُ ! إنّ كلّ ما تفترضينه سراب وأوهام، وكلّ ما تعتبرينه سراب وأوهام. فإلى متى تجرين وراء السّراب !

يا نفسُ ! إنّ الحقيقة العظمى موجودة فينا وليست عنا ببعيد، لكن الفهم الخاطئ هو السّدّ المانع، وما أصعب هدم هذا السّدّ !

يا نفسُ ! إنّ المشكلة الكبرى بشأن إبليس هو نفوذه في نظامكِ العصبي والفيسيولوجي، فحتى الفهم والاستيعاب لا يجدي مع هذا السّدّ الشيطاني المنيع القائم في وجودكِ.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! لذا لزم لكِ تغيير النهج الفكريّ العمليّ في الحياة، والدخول في السّير والسّلوك، حيث المقاومة الفعليّة لسلطان التيّارات المختلفة من هذا السّدّ الشّيطاني المنيع، من الشّهوات والنوم والكبر والغرور وشحّ النّفس، والتي هي أجزاء مهمّة من هذا السّدّ الشّيطاني المنيع.

يا نفسُ ! إنّ التعاطي مع هذا السّدّ الشّيطاني المنيع شيء صعب وعسير، لذا فالسّير والسّلوك مشوار طويل، يستحقّ منكِ هذا العمر القصير، لأنّ الدنيا هي الفرصة الوحيدة والمزرعة الوحيدة لبناء الآخرة، ولا بدّ منها لهدم هذا السّدّ من ظلمات الجهل المتجذّر المتأصّل فيكِ.

يا نفسُ ! كم تقولين ولا تفعلين ! لأنّ هذا السّدّ ممتنع عنيد. لذا فالعمل الجادّ المستديم، وهمّة العاشقين، تنجح في نهاية المطاف، في انقشاع ظلم الجهل وهدم السّدود.

يا نفسُ ! أتعجّب كيف يعيش هذا الإنسان الشاذّ الاعتباري في نشأة الخلود، حيث لم يستهدف الإصالة في حياته، بمعنى توبته وعودته إلى الإصالة الموجودة فيه، أو ما نسمّيه بالجانب الإلهيّ من وجوده ! وإذا لم يكن الإنسان أصيلًا، فهو كالأنعام بل هو أضلّ، لأنّه من الغافلين.

يا نفسُ ! أخاف عليكِ أن لا تستثمري كنوزكِ في هذه الحياة الدنيا، ثمّ تذهبي عنها كما تذهب الأنعام. أخاف عليكِ أن لا تعودي إلى إصالة الوجود، فتموتي وليس لكِ إصالة في هذا الوجود.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! جنس الشّرك يتنافر عن رتبة التّوحيد، كتنافر الجهل عن رتبة المعرفة، وتنافر سوء الخلق عن حسن الخلق، وتنافر الغضب عن الحلم، وتنافر الشّحّ والبخل عن الجّود والكرم، وتنافر الشّبق عن العفّة.

يا نفسُ ! افتحي عينيكِ ! هكذا خلقنا الله، ونحن مسلّمون له تسليمًا كاملًا، ومقرّون له بالربوبيّة. إذن يجب أن تتعاملي مع نفسكِ، كما يتعامل السّالك مع نفسه، في ذكر دائم مستديم، وجهاد وتعب ونصَب، من دون كلل ولا ملل، حتى تصلي في حياتكِ القصيرة هذه إلى الجانب الإلهيّ من وجودكِ، كاملًا غير منقوص، لأنّه إن لم تصلي، فأنتِ في خسر، والله غنيّ عنكِ.

يا نفسُ ! كيف أشرح لكِ أهمّية هذا الموضوع، إنّه أمر حياتيّ هامّ، إنّه أمر يخصّ وجودكِ أنتِ في عالم الخلود، كيف تريدين أن تكوني هناك في المليارات من السّنين، بل أكثر من ذلك. وهل هذا أمر بسيط ؟

يا نفسُ ! للوصول إلى رتبة التّوحيد يجب أن تتخلّصي نهائيًّا من جنس الشّرك، سواء كان الشّرك الظاهري أو الشّرك الباطني في شكل الشّرك الخفيّ.

يا نفسُ ! إنّ موضوع السّير والسّلوك أمر حياتيّ، وهو أهمّ شيء في الحياة، لأنّه يخصّ حياة الخلود. وليس أمرًا تفنّنيًا أو علم الأخلاق، كما يسمّونه، أو علمًا من العلوم، يغنيكِ عنه باقي العلوم.

يا نفسُ ! اعرفي نفسكِ، فأنتِ الدرّ في هذه المتراكمات من المزابل، التي تتكدّس بعضها فوق بعض، بحيث تفقدين النّظر إلى الدّرّ، الذي هو وجودكِ الأصيل.

يا نفسُ ! اعرفي نفسكِ، ففيكِ انطوى العالم الأكبر، كما قال أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين الإمام عليّ عليه السلام. إن لم تصلي إلى العالم الأكبر فما هي أهمّية وجودكِ يا ترى ! تأكلين وتشربين وتنكحين وتنامين ! فهذا ما تفعله الحيوانات والبهائم ! ألهذا خلقتِ يا نفسُ ؟

يا نفسُ ! استثمري هذه السّنوات القليلة الباقية من عمركِ، لاكتشاف ماهيّتك الإلهيّة، التي تباهى بها الله حين قال عزّ من قائل[1] : { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

يا نفسُ ! لقد خلقكِ الله في مرتبة التّوحيد، في أحسن تقويم، فكانت فطرتكِ الصّافية البريئة، لكنّكِ نزلتِ إلى أسفل سافلين، إلى جنس الشّرك، بفعل الشّيطان وأعوانه من البشر الذين حواليكِ.

---

[1] سورة المؤمنون الآية ١٤.

يا نفسُ ! ماذا دهاكِ ! أكلّمكِ عن الدّرّ التي فيكِ، وعن العالم الأكبر الذي فيكِ، فتستغربين وتتعجّبين ! وكأنّي آتٍ إليك من عالم المريخ، وأتكلّم إليكِ كلامًا غير مفهوم، وكلامًا غريبًا عليكِ لا تفهمينه !

يا نفسُ ! كوني من القلائل الذين يستعملون القلوب والأعين والآذان الباطنيّة، التي أودعها الله فيكِ، حتى تكوني من المفلحين. يا نفسُ ! تجرّدي من المرئيّات، وانفذي في سماء ملكوتكِ، تبحثين عن هذه القلوب وهذه الأعين وهذه الآذان.

يا نفسُ ! إذا هيمن الشيطان عليكِ فهو الظّلم بعينه، كما أخرجكِ من رتبة النّور والعدل التي كنتِ فيها، وأنتِ في عهد فطرة النّور والصّفاء، إلى جنس الظّلم والظّلمات، التي تشوّهت فطرتكِ بها.

يا نفسُ ! أنا أتعجّب كيف تميلين إلى معاناة الخوف والحزن والجهل والفقر ! ولو عرفتِ حقّ المعرفة أنّ الضمان الوحيد هو حبّ الله، لتحوّلت رعونتكِ وصعوبتكِ إلى خضوع وخشوع، ولتفجّرتِ بكاءً ونحيبًا، كما تفجّرتُ في يوم من الأيام بكاءً ونحيبًا، حينما تذكّرتُ كيف ضيّعتُ عمري في الجهل وكلّ تبعاته، من التفكير المعوجّ، والنهج المعوجّ في الحياة، الذي لا يناسبني ولا يناسب إصالتي، ولم يكن هناك حكيم ووليّ مرشد ينقذني من براثن الاعوجاج، إذ كان كالسّبع الضاري ينهش لحم غزال بريئ، وتذكّرتُ كيف أنني كنتُ ذلك الغزال البريئ !

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! انفضي غبار الظّلم عن كلّ جوارحكِ، جارحة جارحة، واكشفي حجب الظّلمات عن ذهنيّاتكِ وأفكاركِ، وابحثي عن جذور الذنوب والمعاصي في أعماق أعماقكِ، وصارعي الشّياطين في ظلماتِ نفسكِ، وابدئي بمعرفة نفسكِ ودقائقها

وحيلها ومصائدها ومكرها وخداعها، حتى لا تلومي غير نفسكِ عدالة وإنصافًا، وحتى تجدي بأمّ عينيك كيف تلعب الفئران والجرذان وترتع وتمرح في ظلمات نفسكِ.

يا نفسُ ! وكيف يتأتّى ذلك من دون التعرّض لدورس المعرفة والحكمة، والإصغاء إلى النّغمات اللطيفة من عالم العلويّات، ومن دون التسليم للتعليمات السّماويّة، وتطبيقها في نفسكِ درسًا درسًا ؟

يا نفسُ ! إلاَّ أنَّها أصعب لون من ألوان التّلمذة، لا يحفظ فيها التّلميذ دروسه ويحشّي ذهنه، بل يطبّقها في نفسه، ويُسقط كلّ الإضافات على فطرته العلويّة، وذلك بتصفية ذهنيّاته من كلّ ما اكتسبه خلال عمره، من محيطه وبيئته، من علم ناقص، ربّما كان ضربًا من ضروب الجهل المركّب.

يا نفسُ ! وطبعًا تسهل صعوبات هذه التّلمذة، عندما تكونين باحثة عن ضالّتك. وهل تصلين إلى السّعادة إلاَّ عندما تجدين ضالّتك ؟ وهل ضالّة المؤمن غير الحكمة ؟

يا نفسُ ! وأحكم شيء يربطكِ بالعالم السفليّ هو التّعلّقات القلبيّة بمتاع الدنيا. وبالمعرفة يتيقّن الإنسان بأنّ المتاع لا يستحقّ كلّ هذه التّعلقات القلبيّة ، وكلّ هذه الرّغبات والشّهوات والغرائز. فما أحسن أن ينقلع الإنسان عن المتاع، وأن يوجّه كلّ قواه القلبيّة والغريزيّة لإنقاذ الدّرّة البيضاء من هيمنة القمامة والأوساخ التي تراكمت عليها !

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! تلك هي عبادة الله والعمل بوظيفة العبد الصّالح، والتطوّق بطوق نير عبوديّته. وهل العبوديّة إلاَّ عشق الرّبوبيّة، وتبعيّة المولى، والاستكانة إلى حبّه ومرضاته ! **فإن لم يرض العبد بعبوديّة الله، كان كالعصافير المغرّدة، لا ترضى بزقزقتها، والماء العذب لا يرضى بعذوبته، والأشجار الباسقة لا ترضى بألوانها الخلاَّبة، والمطر الزلال لا يرضى بالهطول إلى الأرض.**

فكان كمن يعيش في الانفصاميّة المريضة - هو في واد وواقعيّته في وادٍ آخر - ينفصل عن إصالة وجوده، ولا يبقى منه إلّا الموجود المتمرّد والمهرّج المقلّد، يتمرّد على قوانين الطبيعة ونواميس الوجود، ويقلّد غيره، ويعيش حياة التّكلّف والتّهريج.

يا نفسُ ! **وهل عبادة الله إلّا القبول بعبوديّته، والاستسلام إلى معانيها العظيمة، والالتزام بوظائفها النبيلة ! فانظر إن كنت تستعمل عبادة الله، لنيل المال أو الجّاه، أو امرأة تنكحها، فأنت في الحقيقة تعبد المال والجّاه والملذّات الدّنيويّة.**

يا نفسُ ! **أخلصي نفسكِ لله وحده، وطهّري النّيّات، وليكن هدفك الوحيد هو الله، وابتغي إليه الوسيلة في مصاحبة الأنبياء والأئمّة والأولياء والعرفاء والصّالحين، وفي اكتساب تعاليمهم وشفاعتهم، للوصول إلى الله العليّ العظيم.**

يا نفسُ ! لقد كنتُ أعلم مدى عجز العلم في اكتشاف الحقائق، وكنتُ أعلم بأنّ حجم المجهولات أكبر من المحيطات. ولكنني لم أكن أتصوّر وجود علّامة من نوع البشر، مطّلعًا مطلًّا على محيطات المجهولات. لم أكن أتصوّر أنّ ضالّتي في كنانتي:

كَالعِـــيسِ فِي الْبَيْـــدَاءِ يَقْتُلُهَـــا الظَّمَـــا وَالْمَـــــاءُ فَـــوقَ ظُهُورِهَـــا مَحْمُـــولُ

وما أشبه البشر بالجمال في الصّحراء، يقتلها الظمأ، والماء منها كقاب قوسين أو أدنى ! وعلمت أنّني والبشريّة جمعاء قد سلكنا طريق الخطأ، وانحرفنا عن الطريق الصحيح. لقد كانت عندي تصوّرات بعيدة وعاتمة عن الأنبياء، ولم أكن أتخيّل أنّ باستطاعتي الوصول إلى عوالمهم، عوالم الفلاح والسّعادة والصّدق والروعة والمجد والحقّ.

وبعد رجوعي من لندن حضرت جلسات الدكتور مرّة أخرى. وبعد شهر تبلورت التحوّلات الباطنيّة، وبدأت حياة جديدة كأنّني قد ولدت مرّة أخرى.

وشعرت وكأنّني قد تعرّضت لقطرات الماء من معين الحياة الخالدة يرشّونها عليّ رشًّا، وللملذّات الفردوسيّة تدغدغ وجودي ... وكأنّهم يجرّبون عليّ ثمار الجنّة.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! **هدف السعي والمجاهدات البشريّة هو السّعادة والبقاء. لهذا فالسّعادة والبقاء قانونان أصيلان فريدان، اللذان يضمّان كلّ السعي البشري من الطفولة إلى الموت.**

وسؤالي الآن: هل حاجتكِ إلى السّعادة المطلقة والنّفس المطمئنّة الراضية المرضيّة قد جعلت فيكِ عبثًا، وأنّ تحقيقها من المستحيلات ؟ وهل يمكن أن يودع الله فيكِ حاجة، ثمّ يجعل تحقيقها مستحيلًا عليكِ ؟ بالله عليكِ فكّري في هذا، ولا تكوني من الكافرين !

يا نفسُ ! ابتغي السّعادة والخلود والبقاء في بناء النفس المطمئنّة الخالدة، التي لا تتزحزح قيد أنملة عن اليقين، ولا تموت كما تموت الجيف في القبور. أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة، وباقية خالدة لا تموت ولا تفنى.

فإنّهما - السّعادة والبقاء - حاجتان ملحّتان في فطرتكِ، ولكنّكِ لم تتعلّمي كيف تستثمريهما، أو أنّكِ لم تعيري التفاتكِ إلى نصائحي ومعاذلتي.

يا نفسُ ! لقد بذّرتِ هاتين الحاجتين الملحّتين أيّما تبذير، وهدرتِ هذه الطاقة الملحّة أيّما هدر، وسلكتِ الطريق الخطأ في إرضاء هاتين الحاجتين الملحّتين في فطرتكِ.

يا نفسُ ! إنّ الأمن والأمان من الخوف والحزن والجهل والفقر هو السّعادة بعينها، وأنّ التّلذّذ واللذّة شيء واحد. فيا ترى ما وراء التناسب العكسيّ بين اللذّة والسّعادة !

يا نفسُ ! لقد خلق الله الشّهوات واللذّات لحكمة عظيمة وهي استمراريّة الأجناس، فلقد خلق الشّهوة في الحيوانات لاستمراريّة ذلك الحيوان بعينه. ولقد خلق الشّهوة في الإنسان لاستمراريّة الجنس البشري. ولولاها لانقرضت أجناس الحيوانات، وانقرض الجنس البشري.

إلّا أنّ أكثريّة البشر الذين لا يتحرّزون من جنس التلذّذ يبطرون ويطغون في الشّهوات، ويطلبون اللذّة من أجل اللذّة، والشّهوة من أجل الشّهوة.

فإذا صارت الأمور على خلاف الحكمة الربّانيّة، بالإفراط في اللذّة والشّهوة، بدأ الصراع بين العقل والشّهوة، وبين الإقبال على الشّهوة والخوف من عدم القدرة عليها، وبدأ **انتقام الطبيعة** من معاناة الخوف والحزن والجهل والفقر.

لأنّ المطلوب يا نفسُ ! هو الاعتدال، كما في الحيوانات. فهي تمارس الشّهوة عند الحاجة، كما تأكل وتشرب عند الحاجة، لا إفراط ولا تفريط. لكنّ الإنسان لا يفعل كذلك، فهو دائمًا في إفراط وتفريط.

يا نفسُ ! لو التزم الإنسان بالاعتدال لكان كلّ شيء على ما يرام. ولو مارس الإنسان الشّهوة عند الحاجة، كما يأكل ويشرب عند الحاجة، لكان كلّ شيء على ما يرام. لكنّه يبطر ويطغى، ويطلب مزيد الشّهوة من أجل الشّهوة، ويطلب مزيد اللذّات من أجل اللذّات.

وهذا ما يتسبّب في نشوء العقد النفسيّة، التي تسبّب الخوف والحزن والجهل والفقر، كما سوف نشرح في الفصول التالية.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الله قد خلق الحواس، من أجل الحبور والبهجة والمسرّات، واللهو والبسط والملذّات، والحظّ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج وحدها، كما يعيش البدن بالطعام والشراب، ويعيش الرّوح بالعلم والمعرفة والعشق والمودّة والمحبّة.

يا نفسُ ! إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم. لهذا فإنّ هناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الروحيّة، بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون تغذيتها بالملذّات الشّهوانيّة.

يجب أن تفهمي يا نفسُ ! وتوحي إلى نفسك الإيحاء الذاتيّ الإيجابيّ، كما يقال في علم النفس، وتكرّري الإيحاء مليون مرّة وأكثر، وترسّخي في جذور أعصابكِ وفسيولوجكِ، بأنّ لله الولاية والسّيادة على شهواتكِ، وعلى فرجكِ وأدواتِ رجولتكِ وشهواتكِ. إنّها لله وليس لكِ يا نفسُ ! ولا حول لكِ ولا قوّة إلّا بالله. فإذا استقرّ هذا الفهم عملًا وفعلًا في كلّ ذرّة من ذرّات وجودكِ، وفي أعماق أعصابكِ وعقلكِ الباطن، استقام أمركِ، وتنفّستِ الصعداء من العقد النفسيّة، ومن الخوف والحزن والفقر والجهل.

يا نفسُ ! وإذا رأى الإنسان أنّ الحواس تكره الصّيام وتبغضه وتمقته، **فدعه يذكّرها بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود. ودعه يذكّرها بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة.** وبذلك يسهّل عليه تهدئة الحواس وكبح جماحها.

يا نفسُ ! **فالأحسن أن تقنعي بالقليل في هذه الدنيا، لنيل الكثير في الآخرة، من أن تطلقي العنان للقليل، ثمّ تُجرّدي وتُحرمي من كلّ الملذّات والمباهج في الجحيم، وتبقي في عذاب جهنم خالدة فيها.**

يا نفسُ ! حواسكِ متعطّشة لمباهج الحياة، في هذه النشأة وفي النشأة الأخرى، أي في دار الخلود. إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! **إنّ هذه المباهج تتضاعف أضعافًا مضاعفة في الجنّة،لخلوّها من الغيظ والحنق والسّخط والغضب والحرمان، الذي تحسّه هذه الحواس في هذه الدنيا، بسبب حرمان أبينا آدم من جنات الفردوس، إثر المعصية التي ارتكبها بوسوسة الشيطان.**

أو كما ذكر عيسى بالنصّ في مكان آخر: ودع التائب يذكّر حواسه بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة.

وعلى صعيد آخر، فإنّ عذاب الحرمان يتضاعف أضعافًا مضاعفة في نار الجحيم، لغيظ الحواس وحنقها وسخطها وغضبها من حرمانها المضاعف من جنات النعيم.

أو كما قال عيسى بالنصّ في مكان آخر: فدع التائب يذكّر الحواس بحالة الجحيم ، حيث لا ملذات البتة ، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود.

يا نفسُ ! لقد تبيّن لكِ في الفصول السابقة بأنّ اللذّة تتناسب عكسيّا مع السّعادة ، بمعنى كلّما زادت اللذّة تناقصت السّعادة، وكلّما تناقصت اللذّة زادت السّعادة. ولذلك نصحكِ نبيّ الله إدريس عليه السلام أن تتحرّزي من جنس التلذّذ كي تستريحي من مقاساة الخوف والحزن والجهل والفقر، التي هي عوامل الشّقاء.

يا نفسُ ! كذلك تتناسب اللذّة طرديًّا مع الشّقاء أو الخوف والحزن والجهل والفقر، وقد شرحت أسباب ذلك في الفصول السابقة. والثابت أنّ جنس اللذّة ليس من جنس السّعادة، لكن الناس من جهلهم يسعون وراء اللذّة ، ظنًّا منهم أنّهم يسعون وراء السّعادة، التي هي الحاجة الملحّة في فطرة الإنسان، كما ذكرت في الفصول السابقة.

يا نفسُ ! ومن خضمّ هذا الجهل وممارسة اللذّات تتولّد الذنوب والمعاصي، لتداخل وظائف الحواس مع الفطرة السّليمة، والتي بتداخلاتها هذه تشوّش الحواس على الفطرة بالكثير من

الذنوب والمعاصي - الفطرة تطلب السّعادة والحواس تطلب اللذّات. وأيضًا يبرّر هذا من قبل عيسى عليه السلام بقوله:

إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

لهذا فإنّ هناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الروحيّة، بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون تغذيتها بالملذّات الشّهوانيّة.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! ومن تسامى لا على الرذائل فقط بل على الفضائل أيضًا، وارتفع إلى مكارم الأخلاق، لم ينتقم حتى من عدوّه. ثمّ عفا عمن ظلمه، ووصل من قطعه، وأحسن إلى من أساء إليه. فإذا عرف عدوّك ذلك، أمنك وارتاح إليك، كما قال الله تعالى مخاطبًا نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم[1] :{ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ }. وكما في قول بشر الحافي: << لا تصل كمال الإيمان ما لم يأمن جانبك عدوّك >>.

يا نفسُ ! ومن تسامى على الرذائل والفضائل، وتخلّص من الدنيا والآخرة، وتخطّى الكفر والإيمان معًا، وجعل قلبه خاليًا من غير الله، وانقطع إلى الله كمال الانقطاع، رفعه الله مكانًا عليًّا. يقول الله جلّ وعلا في حديثه القدسي: << من انقطع إلينا رفعناه مكانًا عليًّا >>.

فأنتِ يا نفسُ ! هو ما تطمحين إليه، وأنتِ ما هو منتهى أملكِ. يقول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: << الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرام على أهل الله >>.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الذنوب والمعاصي تتولّد من رحم الجهل وممارسة اللذّات، لتداخل وظائف الحواس مع الفطرة السليمة، والتي بتداخلاتها هذه تشوّش

[1] سورة آل عمران الآية ١٥٩.

الحواس على الفطرة بالكثير من الذنوب والمعاصي - **الفطرة تطلب السّعادة والحواسّ تطلب اللذّات.**

وللخروج من هذا المأزق، لزم عليكِ نظم السّلوك وفرن الرياضة، حتى تخرجي من الذنوب والمعاصي وتنقطعي إلى الله بكلّيّتكِ.

نعم الشرط هو قبول كلام ابن السمّاك من قبل معروف الكرخي، وبذلك تتحقّق المصداقيّة وإلّا فلا. فمجرّد كلام الأولياء وسماع حديثهم، من دون جدّية وصدق نوايا، والذي يمرّ عليه السّامع مرّ الكرام، ولا ينتهي به المطاف إلى تغيير نهج حياته تغييرًا جذريًّا، لا مصداقيّة له البتّة.

والقبول ليس قبولًا بلقلقة اللسان، بل هو العمل الجدّيّ الصّادق في دخول سلك التربية العرفانيّة والسّير والسّلوك، وذاك ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام روحي له الفداء لمعروف الكرخي.

فما ذكره ابن السمّاك في قوله: << **من انقطع إلى الله تعالى بكليّته تغمّده الله برحمته وأرجع الخلق إليه** >> كان له أثره العظيم في قلب معروف الكرخي، حيث وقع في قلبه وقعًا شديدًا، حتى عمل بكلّ طاقاته لتحقيق هذا الهدف من حياته وهو **الانقطاع إلى الله بكليّته.**

وأخيرًا تحقّق له هذا الهدف ورجع إلى الله بكليّته. فالانقطاع إلى الله هو الهدف من جهاد السّالكين ومنتهى أمل العارفين، وهذا يحتاج إلى نظم السّلوك.

يا نفسُ ! اسمعي ما يقوله بايزيد البسطامي قدّس سرّه، وهو يحكي عن طريقه الشاق الشائق في السّير والسّلوك:

كنت حدّاد نفسي لمدّة اثنتي عشرة سنة، وضعتها في فرن الرياضة، وأشعلت عليها نار المجاهدة، ووضعتها على سندان المذمّة، وطرقت عليها بمطرقة الملامة، حتى صنعت منها مرآة.

وفي السّنوات الخمسة التالية كنت مرآة نفسي أنظّفها بأنواع الطاعات والعبادات. ثمّ نظرت في نفسي فوجدت فيها عقدة من الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطاعة والأعمال.

وفي السنوات الخمسة التالية حاولت جهدي أن أتجاوز تلك العقبة الكأداء، وأسلمت إسلامًا جديدًا. ثمّ نظرت فوجدت الخلق أمواتًا وكبّرت عليهم أربعًا ومررت على جنائزهم، وبعيدًا عن معاناة مخالطة الخلق، وبعون الحقّ وصلت إلى الحقّ".

سألوا با يزيد البسطامي: << بأي شيء وصلت إلى ما وصلت إليه ؟ >>. قال قدّس سرّه: <<جمعت الزبارج من متاع الدنيا، وربطتها بسلاسل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصّدق، ثمّ قذفت بها في بحر اليأس>>. ما أعظمها من جوامع الكلم تختصر جهاد الحياة في كلمات قصار !

يا نفسُ ! إنّ ترويض النّفس البشريّة وتطويعها يأخذ مدّة أكثر بكثير من ترويض البهيمة، لأنّ النّفس البشريّة أكثر شراسة من الحيوانات الشرسة الوحشيّة. لقد أخذت هذه العمليّة عند بايزيد البسطامي إثني عشر عامًا. كانت نفسه في فرن الرياضة وكان يشعل عليها نار المجاهدة. فما بالنا نحن ! يا ترى كم تاخذ منّا من الوقت لترويض هذه البهيمة فينا !

يا نفسُ ! إنّ النّفس تميل إلى العيش في قفص المحدوديّة، أي أنّها تميل إلى نظام الأفعال وردود الأفعال العصبيّة، وهذا ما طبع عليه نظامه العصبي.

يا نفسُ ! إنّ القفزة من الجانب البهيمي في الإنسان إلى الجانب الإلهي تحتاج إلى مجهود جبّار ونظام صارم - ألا هو نظم السّلوك وطريقة السّير والسّلوك.

يا نفسُ ! إنّ النّفس البشريّة لا تميل إلى اقتطاع نفسها من دوّامة ردود الأفعال وإسارة النظام العصبي. أي أنّها لا تميل إلى السّموّ على هذه النّفس والطواف بعيدًا عنها، ومراقبتها من فوق.

يا نفسُ ! أليس هذا قفص الدنيا والمحدودية الضيّقة التي تعيشين فيه، في إسارة جهلكِ وغفلتكِ، رغم أنّكِ ينطوي في أعماقكِ العالم الأكبر، كما ذكر الإمام عليّ عليه السلام، ورغم أنّكِ تنتمين إلى اللانهائي في أصلكِ ؟

يا نفسُ ! فمتى يا ترى تقتطعين نفسكِ من القفص، وتصلين إلى العالم الأكبر ! لا سبيل إلى ذلك إلّا عن طريق نظم السّلوك الذي ذكره بايزيد البسطامي !

يا نفسُ ! فانظري مليًّا في سلوك الإنسان. إنّه تحدوه في هذه الحياة الدنيا ثلاث قوى هائلة كامنة في نفسه :ـ

أ ـ الشّهوة الجنسيّة.

ب ـ الحقارة الذاتيّة.

ج ـ الخوف العصبي.

علمًا بأن جذور كلّ المعاصي والذنوب هي ثلاث قوى هائلة كامنة في نفس الإنسان :ـ

أ ـ الشّهوة الجنسيّة، وهي طعام الحواسّ في الإنسان.

ب ـ الحقارة الذاتيّة، وهي الجانب البهيمي في الإنسان.

ج ـ الخوف العصبي، وهو كامن في النظام العصبي والفسيولوجي والعقل الباطن في الإنسان.

أمّا طعام الحواس فيمكن استبدال الشّهوة الجنسيّة عند اللزوم بمباهج الرّوح عن طريق السّير والسّلوك.

أمّا الحقارة الذاتيّة فعلاجها التسامي على النّفس عن طريق السّير والسّلوك.

وأمّا الخوف العصبي في العقل الباطن وفي النظام العصبي والفسيولوجي فمشوار علاجه طويل طويل عن طريق السّير والسّلوك.

أمّا في البهائم، فهي شهوة غضبيّة محضة، لأنّها لا تشعر بالحقارة الذاتيّة البهيمية الكامنة فيها.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الحقارة الذاتيّة تتجلّى في الإنسان في أنواع مختلفة من الغضب والأحقاد والعداوات، التي تسمّى (الشّهوة الغضبيّة) في الفلسفة الإلهيّة. أمّا في البهائم، فهي شهوة غضبيّة محضة، لأنّها لا تشعر بالحقارة الذاتيّة البهيمية الكامنة فيها.

أمّا في الإنسان فيشوبه شعور صارخ بالحقارة، وهذا ما يميّزه عن الحيوان. وأنّى للكائن الإلهي أن يبقى في القفص الضيّق ! رغم أنّ الأكثريّة السّاحقة من بني البشر لا تنتبه بالوعي الكامل لهذه الحقيقة العظمى.

أمّا شعور الإنسان بها فهي حقيقة ثابتة، وهو شعور صارخ يظهر جليًّا في سلوكيّات الإنسان، يحدوه ويقوده في عذاب ونكد ومعاناة وكبد.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الإنسان مركّب من الشّهوة الغضبيّة وعقل الملائكة، الذي هو عبارة عن حلمها وعفوها وتواضعها. فإذا كان عقل الملائكة وحلمها وعفوها وتواضعها غالبًا عليه صار أحسن من الملائكة. وإذا كانت الشّهوة الغضبيّة غالبة عليه صار أسوأ من البهائم.

يا نفسُ ! فكأن الكائن الملائكي في باطنكِ يشير صارخًا إلى الكائن البهيمي فيكِ بصفة الحقارة الذاتيّة ! فإذا تعرّضتِ للاستفزاز والمهانة والتحقير شعرتِ بالحقارة الذاتيّة، فيكون ردّ فعلكِ الحقد والغضب والكبر والصلف. فكأنّكِ تظنّين بأنّ ردود الأفعال هذه تمسح عنكِ الحقارة الذاتيّة، وتخلّصكِ منها !!!

يا نفسُ ! لو أنّكِ قوّيتِ الكائن الملائكي في وجودكِ، بصفات الحلم والعفو والتّواضع، لاستغنيتِ عن ردود الأفعال هذه، لمسح الحقارة الذاتيّة، التي تنتمي إلى الكائن البهيميّ الكامن فيكِ.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! توجد هناك هواجس عصبيّة هي في الواقع جروح في النظام العصبي، وتسمّى العقد النفسيّة، يرجع عهدها إلى أيام الطفولة في غياب وعي الطفل. فتبقى في منطقة اللاوعي تهدّد الإنسان دائمًا، وتبقى بشكل الحركات اللاإرادية، والهاجس العصبي، الذي يشغل حيّزًا من روح الإنسان وأفكاره وخواطره.

وخلال أفران الرياضة ونيران المجاهدات، يكون العارف قد أبلى بلاء حسنًا، وواجه معظم الحجب الكثيفة التي تغطّي جذور العقد النفسيّة، التي ترجع إلى أيام الطفولة، التي تكوّنت عنده في غياب وعيه، واستقرّت في منطقة اللاوعي، ويكون قد خرق معظمها، وطوّع آثارها وأعراضها.

يا نفسُ ! إنّ الإنسان أسير العقد النفسيّة ومملوكها ! أمّا السّالك فيجب عليه التسامي عليها، والتحرّر من إسارتها الظالمة ومملوكيّتها وعبوديّتها، والخلاص من الشّرك الخفيّ، إن أراد الدخول في العالم الأكبر والعبوديّة لله وحده من دون شريك.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ الطريق الصحيح هو التسلّح بالمعرفة والعرفان، للسيطرة على الحقارة الذاتيّة المستبدّة، وتغليب الجانب الإلهي على الجانب البهيمي، الذي هو الحقارة الذاتيّة بعينها، لا أن تستسلمي للحقارة الذاتيّة المستبدّة، تعمل ما تشاء من الإجرام، وتعوّض الإنسان عن عقدتها، بالكبر والصّلف والأحقاد والغضب، وحبّ الجاه والرئاسة

والطغيان، والاستهزاء بالغير والحسد، وحبّ الدنيا واهتماماتها ورغباتها، والحرص والتنافسات الدنيويّة وطول الأمل، وحبّ المال وحبّ النفس والظلم والرّياء وغيرها.

فبدل أن تتركي الحقارة الذاتيّة تعوّض عن عقدتها بالرذائل، يجب عليكِ أن تأخذي أزمّة الأمور بيديكِ، وتضعفي الحقارة الذاتيّة بعمليّة التزكية والجهاد الأكبر، وتحطّمي أنف الاستبداد الهدّام، الذي بدأ هو بالفعل بعمليّة هدم شخصيّتكِ.

يا نفسُ ! هذه الحقارة الذاتيّة هي الشّيطان بعينها، وهي القوّة الهدّامة في أعماقكِ، تهدم وتهدم وتهدم، وتهدّد وتهدّد وتهدّد، وتتوعّد وتتوعّد وتتوعّد. فإلى متى يا ترى تتركينها تهدم وتهدّد وتتوعّد ! وإلى متى تتركين القوى الهدّامة هذه تعيث فيكِ فسادًا !!!

يا نفسُ ! إذن وضع النّفس في فرن الرّياضة، وإشعال نار المجاهدة عليها، ووضعها على سندان المذمّة، والطرق عليها بمطرقة الملامة، كلّ هذه هي لصنع مرآة النّفس، وحصول الفضائل ومكارم الأخلاق، والخروج من قفص الحقارة الذاتيّة إلى فضاء السّموّ الذّاتي، ومن عذاب الهواجس العصبيّة إلى جنّة السّكينة، ومن طغيان الشّهوة الجنسيّة إلى تطويعها، **حتى تصبح النّفس كالبهيمة المروّضة، مطيعة وخاشعة وخاضعة لربّها، ومفيدة وناجعة لصاحبها.**

يا نفسُ ! إذا تروّضتِ ثمّ تطوّعتِ على طاعاتِ ربّكِ، تصبحين كالمرآة، تعكسين مشيئة ربّكِ، وتكونين رحمة لنفسكِ لا وبالًا عليكِ، تمامًا كالبهيمة التي تتروّض، ثمّ تتطوّع على طاعات صاحبها. وأحسن مثال على ذلك الفيلة الوحشيّة حين تروّض، وبعد اللتيا والتي من الترويض الشّاقّ، تصبح مفيدة لأصحابها، تقتلع الأشجار الكبيرة وتحملها مسافات بعيدة، وتحمل أصحابها إلى حيث يشاؤون، حتى إلى المرتفعات الصعبة، حيث لا تنفع البغال والحمير ولا حتى الحصان.

يا نفسُ ! إنّ نظم السّلوك لا يستأصل المعاصي والذنوب استئصالًا، ولا يقتلعها من جذورها اقتلاعًا. فنفسكِ معكِ لا يمكن إبادتها، بل يجب فقط ترويضها وتطويعها. فالجهاد الأكبر

سمّي جهادًا أكبر، لأنّكِ أمام عدوّ لا يمكن إبادته والاستراحة منه، كما في الجهاد الأصغر. ولكن يمكن تحاشي سلبيّاته، حتى تختفي وتخفت إلى حدّ أنّكِ لا تكاد تشعري بها وبآثارها.

فمثلًا الشّهوة الجنسيّة في أوجها، وهي الشّبق وشهوة النّظر وفضوله، تتحوّل بالجهاد الأكبر إلى نشاط الشّهوة الجنسيّة في إطار حدودها الشّرعية فقط، والى إرضاء معتدل لحاجة الغريزة الملحّة. كما في حالة الجوع مثلًا، حيث يجب إرضاء الجوع، الذي هو أيضًا حاجة الغريزة الملحّة، بالكفاف، أي بالطعام الذي يسدّ رمقه. وهذا هو المطلوب لا غير.

يا نفسُ ! إذا كان إرضاء الشهّوة الجنسيّة من أجل الشّهوة الجنسيّة، فإنّ المسألة تتحوّل بطرًا وطغيانًا، وتتحوّل من الكفاف إلى الإفراط، مما يسبّب نكد العيش والخوف والحزن. تمامًا كالطعام إذا أفرطتِ فيه مرضتِ، وأصابكِ مختلف الأوجاع والآلام.

يا نفسُ ! هكذا هو البشر ! يميل إلى البطر والطغيان وإلى الإفراط والتفريط، ولو اكتفى مثل الحيوانات بالكفاف في النشاط الجنسي، لما عانى الخوف والحزن والجهل والفقر. لكنّه يطلب التلذّذ فيبتلى، فلا بدّ من التحرّز والصّوم من الجنس.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! يمكن أيضًا صقل الحقارة الذاتيّة لاستخراج الإيجابيّات منها، كما في الغضب والرّياء والثأر والانتقام، حين يكون لله خالصًا مخلصًا. فكلي وفوّضي حقارتكِ الذاتيّة ومذلّتكِ وهوانكِ إلى الله، التماسًا لتذليلها وتخفيف آثارها، والعياذ والالتجاء به سبحانه وتعالى منها.

ثمّ تعرضينها يا نفسُ ! جميعًا على الله سبحانه وتعالى تخشّعًا وتضرّعًا، كما في الأدعية المأثورة عن الأئمّة عليهم السلام. فهذا هو الوجه المشرق والجانب الإيجابي من القضيّة برمّتها، وطوبى لمن نال هذه الدرجة العظيمة، وهو الإقرار الصّادق المخلص الكامل بالعجز والمذلّة والمسكنة أمام الله!!!

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! كي تصبح غريزتكِ الجنسيّة في أوج لذّتها وسعادتها، كما كنت في الجنان مع الحور العين، لا بدّ أن تعلمي علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين بأنّكِ لا تمارسين هذه اللذّات، بل الله هو الذي يفعل، وهو الذي يسعد، وهو الذي يخلق، وهو الذي يمنّ عليكِ، وهو الذي ينعم عليكِ، وهو الذي يحسن إليكِ، وهو الذي يجمل إليكِ، وهو الذي يفضل، وهو الذي يكمل، وهو الذي يرزق، وهو الذي يوفّق، وهوالذي يعطي، وهو الذي يغني، وهو الذي يقني، وهو الذي يؤوي، وهو الذي يكفي، وهو الذي يهدي، وهو الذي يعصم، وهو الذي يستر، وهو الذي يغفر، وهو الذي يقيل، وهو الذي يمكّن، وهو الذي يعزّ، وهو الذي يعين، وهو الذي يعضد، وهو الذي يؤيّد، وهو الذي ينصر، وهو الذي يشفي، وهو الذي يعافي، وهو الذي يكرم، وهو الذي يرفعك إلى أوج اللذّات، حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر !

نعم تحقّقت فضيلة التقوى عند با يزيد البسطامي. ولكن ما هو التقوى ؟ أن يعلم بعلم اليقين بأنّ كلّ شيء يقع إنّما يقع بمشيئة الله، وأنّ التدبير إنّما هو من عند الله. وإذا وقع وكان ما هو كائن، نتيجة لسعي الإنسان، فهو الله الذي يشعل في سعيه قوّته وحوله. وإذا كان ما هو كائن، نتيجة لعقله، فهو الله الذي وهبه هذا العقل. وإذا لم يتحقق ما سعى إليه أو أرشده إليه عقله - وما أكثر ما تشائين ويشاء الله غيره - فهو امتحان يمتحنه الله به ليربّيه لمقام أسمى.

إنّ بايزيد وأمثاله يطمحون بكلّ وجودهم إلى ما يقوله الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: <<إِلهي أَغْنِنِي بِتَدْبيرِكَ لي عَنْ تَدْبيري، وَبِاخْتِيارِكَ عَنِ اخْتِياري>>. ولقد فاز والله المخفّون !!!

وما هو التقوى يا ترى ! أن يستقيم العبد على صدق عبوديّته لله. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: <<وَأَقِمْنى بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ>>.

وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديث عنوان البصري حين سأله: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ ؟

قَالَ: "ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ، أَنْ لَا يَرَى الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ فِيمَا خَوَّلَهُ اللَّهُ مِلْكاً، لِأَنَّ الْعَبِيدَ لَا يَكُونُ لَهُمْ مِلْكٌ، يَرَوْنَ الْمَالَ مَالَ اللَّهِ يَضَعُونَهُ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَ لَا يُدَبِّرُ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ تَدْبِيراً، وَ جُمْلَةُ اشْتِغَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ تَعَالَى بِهِ وَ نَهَاهُ عَنْهُ، فَإِذَا لَمْ يَرَ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ فِيمَا خَوَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِلْكاً هَانَ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ فِيمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُنْفِقَ فِيهِ، وَ إِذَا فَوَّضَ الْعَبْدُ تَدْبِيرَ نَفْسِهِ عَلَى مُدَبِّرِهِ هَانَ عَلَيْهِ مَصَائِبُ الدُّنْيَا، وَ إِذَا اشْتَغَلَ الْعَبْدُ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ نَهَاهُ لَا يَتَفَرَّغُ مِنْهُمَا إِلَى الْمِرَاءِ وَ الْمُبَاهَاةِ مَعَ النَّاسِ، فَإِذَا أَكْرَمَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ هَانَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَ إِبْلِيسُ وَ الْخَلْقُ، وَ لَا يَطْلُبُ الدُّنْيَا تَكَاثُراً وَ تَفَاخُراً، وَ لَا يَطْلُبُ مَا عِنْدَ النَّاسِ عِزّاً وَ عُلُوّاً، وَ لَا يَدَعُ أَيَّامَهُ بَاطِلًا، فَهَذَا أَوَّلُ دَرَجَةِ التُّقَى، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى[1] : {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

روي أنّ غلامًا عيّر أبا ذر الغفاري في منفاه قائلًا له: <<لو كنت طيّبًا لما طردك عثمان من المدينة>>. فأجابه أبو ذر رضي الله عنه: <<إنّ أمامي عقبة كأداء إذا تجاوزتها لم أبال بما تقول، وإن لم أتجاوزها فأنت صادق فيما تقول>>.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! فالعارف الواصل في خطر على هذا الصّراط، حتى آخر نفس من حياته. ربّما اعتمد على طاعاته وأعماله، وربّما اعتراه الغرور والتباهي والعُجْب. وإذا استسلم والعياذ بالله لهذه العقدة وقع من على الصّراط في الحضيض.

فلقد ورد في الآثار أن زاهدًا، في الأزمنة السابقة، عبد الله في زاوية من الجبل، لمدة ستمائة سنة، ولم يعص الله طرفة عين. وقد وهبه الله هناك شجرة رمّان وعين ماء. فكان يأكل الرمّان من تلك الشجرة، ويشرب الماء ويتطهّر به من ذلك العين. فطلب من الله تعالى أن يقبض روحه، وهو في حالة السجود، حتى يقوم من سجدته في يوم القيامة. فاستجاب الله لدعائه.

[1] سورة القصص الآية ٨٣.

يقول جبرائيل عليه السلام: لقد وجدت في اللوح المحفوظ مكتوبًا، بأنّه في يوم القيامة سيقوم الزّاهد من سجدته، فيخاطبه الملك العلّام أن ادخل برحمتي في جنّتي. فيقول الزّاهد يا ربّ أأدخل الجنّة برحمتك ؟ فأين أجر عبادتي التي استمرّت ستمائة سنة ؟

فيأمر الله تعالى ملائكته أن احسبوا له ستين سنة عبادة، في مقابل كلّ رمّان أكله. ويجيئ النداء الإلهي: "وأين شكر النّعم الأخرى ؟"

فيستعر الزّاهد احمرارًا من شدّة الخجل. فيجلجل خطاب العزّة: <<خذوه إلى النار>>. فتعلو صيحات الزّاهد قائلًا: <<لقد أسأت السّلوك فارحمني واعف عني>>. فيتغمّده الله برحمته ويدخله جنّته.

يا نفسُ ! <<**هذا الرأس يمثّل الشيطان في علوّه واستعلائه، وهذا القلب يمثّل الملكوت في منخفضه وخفائه**>>.

كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: <<**لقد أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه**>>.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - **يا نفسُ ! إنّ السّير والسّلوك يبدأ من القلب وينتهي بالرأس**. يبدأ من القلب لتلقّي الفيض الإلهي، وينتهي بالرأس، وما فيه من المخّ وشبكة الأعصاب التي تتّصل بالنظام العصبي ككلّ، كي يستسلم برمّته ويسلم زمام الأمور للعارف الواصل ويسلم على يديه. يقول الله جلّ شأنه[1] : { ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ }.

وأهم شيء يفعله السّالك في الطريقة وفي سيره وسلوكه هو التمركز على قلبه، فالقلب هو نافذته على الملأ الأعلى. ومن خلال هذا القلب تنفتح له الأنوار الإلهيّة، وينكشف له روحه الذي هو الكائن الإلهيّ فيه وعيّنة منه تعالى، والذي نفخه الله جلّ وعلا من روحه. يقول الله سبحانه

[1] سورة الزمر الآية ٢٣.

وتعالى في سورتي <الحجر> و <ص> مخاطبًا ملائكته[1] : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}. ومن هنا يعرف السّالك ربّه، لأنّ الرّوح عيّنة من الملك العلّام عنده.

يا نفسُ ! إنّ السّالك يقطع أشواطًا بعيدة في السّلوك من خلال فرن الرياضة والمجاهدات ومرآة النّفس. ولكن تبقى العقبة الكأداء. وما أدراك ما العقبة الكأداء ! فإذا لم يسلم شيطانكِ على يديكِ، ولم يعنكِ الله عليه، فهو دائما لكِ بالمرصاد. يضع ملايين الملايين من أحابيله في طريقكِ.

وكيف يكون ذلك يا ترى ! السبب هو أنّ الرأس لم يستسلم بعد ! فهكذا خلقنا الله ! شبكة عظيمة من الأعصاب متّصلة بالمخّ الذي مقرّه الرأس، والتي نسمّيها بالنظام العصبي والفسيولوجي. إنّه نظام غير عقلائي ويجانب المنطق. فهو نظام ردود الأفعال للأفعال التي تصدر عن الطبيعة والمجتمع الذي حواليكِ، وتصلكِ عن طريق الحواس الخمس، أو بالتحديد تصل المخّ عن طريق الحواس الخمس، ثمّ تصل إلى هذه الشبكة المعقّدة من الأعصاب عن طريق المخّ.

وماذا يكون ردود الأفعال يا ترى ! أكثر ردود الأفعال تكون مفيدة لحفظ حياتكِ من أي خطر، واستمراركِ في عمركِ الذي قرّره الله لكِ في هذه الدنيا، واستمرار النوع البشري. ويعمل هذا النظام أتوماتيكيًا لهذه الأغراض من دون تدخّل منكِ، ومن دون إرادتكِ ومن دون عقلكِ ومنطقكِ.

ولكن هذه الدنيا مزرعة الآخرة، كما يقول الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله. ويقول الله جلّ شأنه[2] : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ }. فمن كان يريد حرث الآخرة ينال الخلود والسّعادة الأبديّة الأزليّة فيه، وينال النّفس المطمئنّة الخالدة، بالإضافة إلى حرث الدنيا. أمّا من كان يريد حرث الدنيا وحده فإنّ هذا النظام العجيب خلقه الله تعالى لحرث الدنيا واستمراريّتها.

---

[1] سورة الحجر الآية ٢٩، سورة ص الآية ٧٢.

[2] سورة الشورى الآية ٢٠.

يا نفسُ ! وإذا أردنا حرث الآخرة فلا بدّ من نظم السّلوك، حتى ينتهي بنا المطاف أخيرًا إلى أن يسلم على يدينا هذا النظام العصبي برمّته، بقيادة المخّ القابع في الرأس. وإذا دخلنا في نظم السّلوك لم يستسلم لنا هذا النظام العجيب بهذه السهولة، وتكون هي القلعة الأخيرة التي تسقط وتنهار في طريقة السّير والسّلوك.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! إنّ النظام العصبي الفسيولوجي نظام استكبار واستعلاء، وبعثرة للقوى العظيمة، التي تجنّدت فينا. وهذا النظام العصبي الخفيّ فينا بقيادة المخّ هو **العقبة الكأداء**. فهو السبب في عقدة الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطاعة والأعمال، التي لا تخضع لمنطق الأنبياء، والتي أخذت من با يزيد خمس سنوات طوال، للتغلّب عليها.

يا نفسُ ! وما أكثر السّالكون الذين يتساقطون من فوق الصراط، كما تتساقط ورق الشجر في فصل الخريف ! وهذا هو الصّراط أو الجسر الممتدّ بين بُعد الله وقربه. وأصناف السّالكين الذين يتساقطون ذكروا بالتفصيل في فصلي (التجلّي الذّاتي) و (قدسيّة الزلفى) في كتابي السّموات السّبع.

يا نفسُ ! اعلمي أنّه توجد هناك هواجس عصبيّة، هي في الواقع جروح في النظام العصبي، وتسمّى العقد النفسيّة، يرجع عهدها إلى أيام الطفولة، في غياب وعي الطفل. فتبقى في منطقة اللاوعي تهدّد الإنسان دائمًا، وتبقى بشكل الحركات اللاإراديّة والخواطر والهواجس العصبيّة، التي تشغل حيّزًا من روح الإنسان وأفكاره وخواطره، بل وتلوّثها. ويأتي اصطلاح (نفي الخواطر) في العرفان من هذه الحقيقة، وهي آخر قلعة تواجهنا في هذا الجهاد وهذه الحرب الضروس.

وخلال أفران الرياضة ونيران المجاهدات يكون العارف قد أبلى بلاء حسنًا، وواجه معظم الحجب الكثيفة والتراكمات الرهيبة، التي تغطّي جذور العقد النفسيّة، التي ترجع إلى أيام الطفولة، والتي تكوّنت في غياب وعي الطفل، واستقرّت عنده في منطقة اللاوعي. نعم يكون العارف قد غالبها وصارعها، ثمّ خرق معظمها، وطوّع آثارها وأعراضها.

ولأن العارف يطمح إلى العبوديّة المطلقة لله، ولا يقبل بعبوديّة شيء غيره، حتى إذا كان هذا الشيء هو الهاجس العصبيّ في اللاوعي، لذلك لا يرتاح له بال، ولا يقرّ له قرار، حتى يكشف غوامض اللاوعي بأنوار الذكر الخفيّ، وينفذ نفوذًا في منطقة اللاوعي، ويسلّط الأضواء على منطقة من المخّ، التي ترسل هذه الرسائل الكيماويّة والكهرومغناطيسيّة لا إراديًا إلى النظام العصبي، ومن ثمّ يسيطر على هذه الرسائل إيجابيًا، ويشفي الجروح في النظام العصبي، بعون الله جلّ وعلا، الذي يتولّى الصّالحين من عباده.

ولماذا ترسلها لا إراديًا ؟

القصّة هي أنّ الناس، وخصوصًا الإنطوائيّين الحسّاسين منهم، كما يسمّيهم علم النفس الحديث، تعرّضوا في طفولتهم لأحداث، أخلّت بناحية الأمن والأمان في داخلهم وفي بواطنهم. فكانت تصل هذه الرسائل إلى المخّ، في منطقة معيّنة منه، التي لم تقدر على تحمّل مشاعر رهيبة من القلق والاضطراب، التي ساورتها جرّاء هذه الأحداث.

والآليّة التي تعمل في الإنسان، هو أنّه في حياة اللاوعي من الطفولة، التي تفتقد فيها المعرفة والإرادة، ترسل هذه المنطقة من المخّ مشاعر رهيبة وحركات لا إرادية، عبر النظام العصبي، إلى مناطق معيّنة في البدن، والتي تشكّل عقدة نفسيّة، تؤذي الإنسان دائمًا في حياته، وتنغّص عليه سعادته.

في أيام المراهقة يواجه الإنسان خواطر رهيبة جديدة، وخصوصًا في الفترة التي تتصادم فيها الشّهوة الجنسيّة، التي استيقظت فيه حديثًا، مع العقل والمنطق.

وهذه الإضافات الرهيبة تتراكم وتشكّل عقدة أخرى، ثمّ تزيد التراكمات حتى تتشكّل منها الجبال من القمامات والأقذار. وتتجلّى هذه العقد عادة في سلوكيّات الإنسان بشكل حادّ، إلّا من رحم ربي.

وإذا دخل الإنسان في طريقة السّير والسّلوك، ونفذ في منطقة معرفة النّفس، فإنّ سلوكيّاته تتغيّر وتتعدّل، ولكن بحالة نسبيّة، إلّا من رحم ربي، وأدخله ربّي إلى مقام النّفس المطمئنّة، مع أولئك الذين لهم الأمن وهم مهتدون.

يا نفسُ ! وهذا غير ممكن إلّا إذا تخطّى السّالك العقبة الكأداء برمّتها، بعد أفران الرياضة ورؤية مرآة النّفس والعبادات والطاعات.

يا نفسُ ! وربّما أدّت هذه التراكمات من العقد إلى الأمراض النفسيّة، والتي تعالج أعراضها فقط في المستشفيات. أمّا الجذور فتبقى عند الإنسان، رغم دراساته العالية في الجامعات وغيرها، لأنّها تبقى وراء الحجب الكثيفة من التراكمات، بحيث لا يمكن رؤيتها إلّا لمن رحم ربي.

يا نفسُ ! وعند حصول المعرفة والإرادة، ربّما في الكهولة، يتعامل بعض السّالكين مع الحجب الكثيفة، ويحاولون التغلّب على الحجب ، حجابًا حجابًا، لأنّه لا يمكنهم التعامل مع الجذور.

أمّا الجذور فتبقى تراوح مكانها، لأنّها غائبة عنهم، وهي تهدّدهم وتتوعّدهم من وراء الحجب الكثيفة. والإنسان يعيش مهدّدًا في أمنه وأمانه وفي ظلمات من الظلم. يقول الله جلّ شأنه[1] : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }.

يا نفسُ ! والذي لم يحظ بشرف الإيمان، تتشبّع روحه بهذه العقد وتراكماتها الرهيبة، فيحمل أثقالًا منها إلى النشأة الأخرى في الدار الآخرة، وهو البرزخ بعينه. يقول الله سبحانه وتعالى[2] : {وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }.

يا نفسُ ! فكيف يرضى العارف بهذه الأصفاد والسّلاسل والأغلال تكبّل روحه وتقيّده ! وما عقدة الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطاعة والأعمال، التي تكلّم عنها بايزيد، إلّا

---

[1] سورة الأَنعام الآية ٨٢.

[2] سورة المؤمنون الآية ١٠٠.

رواسب وبقايا من الحجب الكثيفة، التي تغطّي جذور عقد النّفس، وتلفّها بحيث تستقرّ في وسطها، لا يراها الرائي إلا من رحم ربي.

ثمّ أنّ النّفس المطمئنّة هي النّفس التي تخطّت وتجاوزت هذه العقبة الكأداء، ونالت السّكينة المطلقة. فكيف يصل العارف إلى هذه السّكينة المطلقة ؟ وما أكثر الأدعياء والمدّعون وما أقلّ العاملون !!!

ولأنّ العارف يطمح إلى السّكينة المطلقة، والنّفس المطمئنّة، والأمن والأمان، الذي يتحقّق بعد تجاوز بقايا ورواسب الظّلم الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام الآنفة الذّكر، فهو لا يرتاح له بال، ولا يقرّ له قرار، حتى يصل إلى جذور العقد النفسيّة، في مناطق المخّ المختصّة، ويداويها بإرادته وهمّته وعزيمته وذكره الخفي: << **إلهي تولّني بسكينتك وصبغتك** >>، والتي هي في الواقع إرادة الله وهمّته وعزيمته وذكره سبحانه وتعالى، الذي يتولّى الصالحين من عباده.

فتنتشر السّكينة في هذه المناطق البائسة، وتشفيها كالمرهم الذي يشفي الجروح، وتكون بردًا وسلامًا على نيران هذه الجذور من العقد النفسيّة.

يا نفسُ ! إنّ الأحداث التي تقع وقت الطفولة، وتخلّ بناحية الأمن والأمان في داخل الإنسان وبواطنه، وتستقرّ وتترسّخ في اللاوعي بشكل عقدة نفسيّة، تفرز هواجسها العصبيّة من منطقة خاصّة في المخّ، بشكل حركات لا إراديّة.

وإذا نظر العارف في هذه المرآة جيّدًا، أحسّ بمرارة المشاعر الرهيبة في هذه المنطقة بالذّات من المخّ، والتي تتغطّى وتتهرّب من القلق والاضطرابات، وتشغل نفسها بالحركات اللاإراديّة. فإذا وهبها الله السّكينة توقّفت هذه الحركات، واختفت التوترات، واسترخى البدن خشوعًا وخضوعًا لله.

إنّ الأحداث التي تقع في أيام المراهقة، إثر اضطرابات وإحباطات عاطفيّة، وتخلّ بناحية الأمن والأمان في داخل الإنسان وبواطنه، وتستقرّ وتترسّخ في اللاوعي، فهي تشكّل عقدًا نفسيّة أخرى على أنقاض العقد القديمة.

وهذه العقد الجديدة تفرز هواجسها العصبيّة من منطقة أخرى في المخّ، لأنّها في شريحة أخرى سطحيّة من اللاوعي، وتكون على شكل خواطر مؤذية. وهذه الخواطر هي في مرحلة العقبة الكأداء تحتاج إلى عمليّة المراقبة الدائمة، وعملية عرفانيّة أخرى تسمّى: << **نفي الخواطر** >>.

يا نفسُ ! الأكثريّة لا يدركون معاناتهم الأليمة من عقد الحقارة والعظمة والجنس، وهم قد اقتنعوا في قرارة أنفسهم بفضيحة العار والشَّنَار الموهوم التي تعيث في بواطنهم فسادًا.

وهم منغمسون ومستمرّون في اقتراف ذنوبهم وآثامهم لإطفاء هذا العار الموهوم، بالتفاخر والتباهي والظلم والسّرقة والغشّ، وحبّ الرئاسة والجّاه والمقام، واحتقار الآخرين، والقتل وسفك الدماء، واضطهاد الآخرين، واقتراف الفواحش والفضائح وغيرها.

وأقول لنفسي - وهي تستحقّ ذلك - يا نفسُ ! أمّا الأقلية الذين تعاملوا مع الذنوب والآثام، خلال مسيرتهم الطويلة في السّير والسّلوك، فَهُم يرون الأشياء على حقيقتها. يرون أنّ النظام العصبي، بقيادة المخّ القابع في داخل الرأس، غير عقلائي تمامًا، ولا يستجيب لنداء المنطق والعقل، فهو مصرّ على جهله وطيشه وظنونه الوهميّة، لا تزعزعه الإرادات ولا تزلزله العزائم، وهو حقًّا العقبة الكأداء في طريقهم إلى الحق. فمواجهة النظام العصبي هذا بقيادة المخّ ليست بالشيء الهيّن السّهل البتّة.

بطبيعة الحال هذا النمط النادر من الناس قد بدأوا في هذه الحرب الشرسة مع النظام العصبي، منذ أوائل حياتهم حتى قبل السّير والسّلوك ، ثمّ استمرّوا في هذه الحرب تدريجيًّا بعد دخولهم السّير والسّلوك، في عهود الرياضة ومرآة النفس والعقبة الكأداء. وربّما هذه البصيرة في بعض الناس تجرّهم جرًّا إلى السّير والسّلوك إلى الله تعالى.

أمّا في مرحلة العقبة الكأداء، فالمطلوب حقًّا نهاية هذه الحرب بانتصار العارف على النظام العصبي، وبهزيمة هذا النظام آخرًا وأخيرًا، بمعنى أن يُسلم هذا النظام العصبي، الغير العقلائي، على يديك ويعينك الله عليه، كما قال الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله سلّم: << أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه >>.

يا نفسُ ! أليست هذه مهزلة غير عقلائيّة يضحك منها حتى الأطفال ! رغم ذلك فإنّ أكثريّة البشر مبتلون بها ويعانون منها، لأنّهم واقعون تحت استبداد النظام العصبي، تغذّيهم ذنوبًا وآثامًا من قبيل الكبر والجهل والظلم والغفلة والأحقاد والحسد والانتقام، وحبّ الدنيا والحرص والشّبق والشّكّ والرّياء والغضب، وحبّ المال والغنى وحبّ الجّاه والمقام والرئاسة وغيرها.

يا نفسُ ! أليست هذه هي المؤامرة الكبرى، تشترك فيها الذنوب والآثام والنظام العصبي، تتفاعل مع بعضها البعض كالنار في الهشيم ! أليست هذه هي النار التي وقودها الناس والحجارة ! أليست هي[1] الْحُطَمَةُ، نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ، إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ!

ولو كشف لكم الغطاء لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ[2] ! والنّعيم لا يتاح إلّا لمن عتقت رقابهم من النار. هذه النار التي يحملها الإنسان في طيّاته، وبدل أن يسعى في إطفائها، يغذّيها ليل نهار بوقود الجهل والأوهام والظلم والذنوب والآثام.

يا نفسُ ! وهذه هي المهزلة الكبرى في الوجود، لا ينجو منها إلّا الأنبياء والأئمّة المعصومون، ومن كان على نهجهم من الصدّيقين والقدّيسين والأولياء وعباد الله الصالحين والعرفاء الواصلين.

---

[1] سورة الهمزة الآيات ٥ - ٩.

[2] سورة التكاثر الآيات ٦ - ٨.

فمن زحزح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز، وأولئك هم ! وهذه هي مهزلة غير عقلائيّة يدور في دوّامتها كلّ البشر إلّا من رحم ربي - دوّامة ردود الأفعال العصبيّة، وهذه هي العقبة الكأداء حقًّا.

وبعد اثنتين وعشرين سنة تطهّر بايزيد من الذنوب والمعاصي والرذائل، وانكشف السّواد من قلبه، بحيث لم تبق فيه عقدة أو نقطة سوداء. وأسلم إسلامًا جديدًا حيث قال: << لا إله إلّا الله >>، لا بلقلقة اللسان، ولكن بقلب سليم، بحيث تخلّص من أنواع الأمراض والعاهات.

نفى غير الله في كلّ ذرّة من وجوده بقوله قولًا وعملًا: << لا إله >>. وأثبت الله وحده في كلّ ذرّة من وجوده، ولم يشرك معه أحدًا، بقوله قولًا وعملًا: << إلّا الله >>. يقول الشاعر:-

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

وهذا الإسلام الجديد هو كمال التسليم إلى الله. ولما تحقّق هذا التسليم المطلق لله، وجّه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا، كما حصل لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، واستقرّ واسترخى في مهاد أمن الله وأمانه.

وماذا بعد الإسلام الجديد ! هل يوجد في ذرّات وجوده غير الله ؟ حاشا وكلا ! خرج من التّكاثر، ولم يشعر بالخلق حوله رغم مخالطتهم وقضاء الحياة اليوميّة معهم. وجد الخلق كلّ الخلق أمواتًا وكبّر عليهم أربعًا، بمعنى أنّه كان لا يبالي ولا يعبأ بهم. ومرّ على جنائزهم، بمعنى أنّهم قد أصبحوا من الماضي بالنسبة له، وقد تضاءلت أعيانهم في نظره، وتخافتت ذكرياتهم في ذاكرته، كما قال الشاعر:-

شخوصٌ وأشباحٌ تمرُّ وتنقضي وتفنى جميعًا والمحرّك باقي

أو بمعنى آخر توقّف عن العيش معهم في اهتماماته ورغباته، وعن معاناة مخالطتهم. واستغنى عن الخلق، ووصلت قناعته الذّروة، وأخلص في صدقه، حتى جمع الزبارج من متاع الدنيا، وربطها بسلاسل القناعة، ووضعها في منجنيق الصّدق، ثمّ قذف بها في بحر اليأس.

يا نفسُ ! لقد سما با يزيد ووصل إلى الله بعون الله تعالى. بمعنى أنّه ركّز كلّ توجّهاته على الله وحده لا يشرك معه أحدًا، بحيث وصل واتّصل أخيرًا مع الله، لا فرق بينه وبين حبيبه، كما في حديث الشراب للإمام عليّ عليه السلام: << إنَّ لِلّهِ تَعالى شَراباً لِأَولِيائِهِ، إذا شَرِبوا سَكِروا، وإذا سَكِروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خَلَصوا، وإذا خَلَصوا طَلَبوا، وإذا طَلَبوا وَجَدوا، وإذا وَجَدوا وَصَلوا، وإذا وَصَلُوا اتَّصَلوا، وإذَا اتَّصَلوا لا فَرقَ بَينَهُم وبَينَ حَبيبِهِم >>.

وانقطع با يزيد البسطامي إلى الله تعالى بكلّيته، وتغمّده الله برحمته، وأرجع الخلق إليه، **كما نقل معروف الكرخي عن ابن السمّاك، وأيّده الإمام الرضا عليه السلام.**

المؤلف

سيّد تقي سيّد حسين الموسوي

الموافق لـ ٢٠١٦/٢/١١

كلمة التوحيد

كيمياء البدن والروح

يقول نبيّ الله إدريس عليه وعلى نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم أحسن الصلوات وأزكى التحيّات في الفصل الثاني:

> واعلمي يا نفسي أنّ تحرُّزكِ وهربكِ من جنس الشّرك يذهب بكِ إلى مرتبة التّوحيد، وأنّ تحرُّزكِ من جنس الظّلم يذهب بكِ إلى رتبة النّور والصّفاء والتّهذيب والتّمحيص، وأنّ تحرُّزكِ من جنس التلذُّذ يريحكِ من مقاساة الخوف والحزن والجهل والفقر. فتيقّني يا نفسُ حقيقة هذه المعاني، واعلمي صحّتها تنجي وتسلمي من الهلكة.

يا نفسُ ! هل تعلمين ما هو مرتبة التّوحيد ؟

إنّ التّوحيد مراتب، وإنّ التّوحيد ظهور وبطون، وأدناها كلمة <لا إله إلّا الله> باللسان، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا >>. وبمحض أن يتلفّظها الشخص يبدأ هناك في داخله كيمياء جديد في تمام جسده وروحه، يطهّرهما من الرّجس والدّنس.

يا نفسُ ! إنّ كلمة التّوحيد كيمياء البدن والرّوح، لأنّها بداية يقظة العهد والميثاق في فطرتنا، حينما سألنا ربّ العالمين في عالم الذرّ: <<ألست بربّكم ؟ فقلنا: بلى !>>.

يا نفسُ ! إنّها عمليّات كيميائيّة تحصل في جسدك وروحك، لو اطّلعت عليها لرأيت العجَب العجَاب ! وهذه الكلمة العظيمة المقدّسة تتكوّن من قسمين: قسم النّفي وهو <لا إله> وقسم الإثبات وهو <إلّا الله>.

يا نفسُ ! إنّ قسم النّفي مفعوله أنّك تنفي بهذه الكلمة المقدّسة كلّ شيء، وكنت من ذي قبل كالزّبالة تجلب كلّ هوامّ الأرض وكلّ هوامّ الرّجس والدّنس.

وما أن يبدأ الكيمياء الجديد حتى يحدث تغييرات في هذه الزّبالة، فيبدأ في تنظيفها قليلًا قليلًا، إلى أن يصبح هذا المكان جنّة فيحاء.

كانت زبالة تخرج منها روائح كريهة مقرفة، وإذا بها قد تحوّلت عطرًا وشذىً يسكر منها الألباب.

يا نفسُ ! يا ترى ما هو هذا الكيمياء !

كيمياء

ألست بربكم قالوا بلى

ثقي يا نفسُ ! إنّه كيمياء العهد والميثاق، الذي هو عهد العبودية لله ربّ العالمين، والإقرار بربوبيّته عزّ وجلّ، يبدأ بالتفاعل العجيب في داخلكِ، وتنقلب فطرتكِ انقلابًا عظيمًا، لأنّ هذا العهد والميثاق هو في بواطن فطرتكِ.

قال الله تعالى[1] : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }.

يا نفسُ ! هذا النّفي هو نفي كلّ مظاهر الاستكبار فينا، وكنّا من ذي قبل متّصفين بخصلة إبليس حيث ركبنا الغرور، وصاح إبليس فينا وصرخ قائلًا: <أنا خيرٌ منه>. فقلّدناه وسرنا على دربه، وصارت هذه الفكرة، فكرة <أنا خيرٌ منه> متأصّلة في وجودنا، لم ينج منها إلّا القليل.

يا نفسُ ! فمن منّا يا ترى ! لا يفكّر أنّه خير من الآخرين، وأعلم من الآخرين، وأفهم من الآخرين !

---

[1] سورة الأَعراف الآيات ١٧٢ - ١٧٣.

يا نفسُ ! لقد أخرجكِ إبليس من الصّبغة الأساسيّة فيكِ، ألا هي صبغة العبوديّة، وصوّر لكِ، زورًا وبهتانًا، عالمًا بعيدًا عن طهارة التّوحيد، وغريبًا عن فطرتكِ، فأصبحتِ تفكّرين تمامًا كما يفكّر إبليس، بالكبر والغطرسة، وأنّكِ كلّ شيء، وأنتِ خير من الكلّ، وقطع كلّ علاقاتكِ بالله العليّ العظيم، من اللجوء إلى الله، والبكاء على عتباته، والتوسّل إليه، والخضوع والخشوع له.

يا نفسُ ! لو رجعتِ قليلًا إلى الفطرة، لفتحت لكِ بصيرتكِ، وقرأتِ كتاب عهدكِ وميثاقكِ للعبوديّة لله، والإقرار بربوبيّته، وهو مكتوبٌ في كتاب فطرتكِ.

يقظة الفطرة

يا نفسُ ! وهنا يبدأ قسم الإثبات وهو كلمة <إلّا الله> في الظّهور، وينفتح فيكِ شيء كأنّه يقظة من نوم أو انتباه من غفلة، قد نسيتِها وأهملتِها منذ زمن بعيد. فينفجر فيكِ حنين إلى شيء جميل، شيء تتمنّينهِ وتتوق إليه نفسكِ.

يا نفسُ ! إنّ عمى القلب هذا ينبع من إبليس، ولكن يساعد عليها أيضًا أفراد المجتمع الذين تربّيتِ بينهم، وكأنّ الناس حلفاء إبليس إلّا من رحم ربي.

يا نفسُ ! إنّ جنس الشّرك ينبثق من جنس إبليس، وما أكبر هيمنة إبليس علينا نحن البشر !

يا نفسُ ! إبليس هو الذي يوحي إليكِ بكلّ ما هو مضادّ لصفات الله وأسمائه الحسنى، من الشّحّ والبخل، والكبر والغرور، والشّبق والشّهوات واللذّات، والأنانيّة وحبّ الدنيا، وحبّ المقام والعلوّ، والإدّعاء والتفاخر وما غيره.

يا نفسُ ! إنّ الله هو الجوّاد الكريم، والشّيطان يخوّفكِ من الفقر والفاقة، ويأمركِ بالبخل والشّحّ. هو القادر على كلّ شيء، وهو الذي يفعل ما يشاء بحكمته، ويحكم ما يريد بعزّته، والشّيطان يوحي إليكِ زخرف القول غرورًا وزورًا، إذ ليس فيكِ إلّا الضّعف والوهن، ولا حول لكِ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

يا نفسُ ! تواضعي لله ولعلمه المطلق، تواضعي لله ولقدرته المطلقة، هو القاهر فوق عباده، يقهركِ بالموت والفناء والمرض والسّقام والمصائب والشدائد ! قَرُبَ فَنَأى، وعَلا فَدَنا، وظَهَرَ فَبَطَنَ،

وبَطَنَ فَعَلَنَ، لا يُجِنُّهُ البُطُونُ عن الظُّهورِ، ولا يَقْطَعُهُ الظُّهورُ عن البُطُونِ، تكبّر فتواضعَ إلى حدّ أنّه لا يُرى للعيان، رغم فيوضاته التي تملأ الخافقين.

يا نفسُ ! كبركِ وغروركِ هو من أجل أن يغطّي ضعفكِ ووهنكِ. أليس من الأفضل أن تقرّي بضعفكِ ووهنكِ أمام الله ! وأن لا تدّعي شيئًا ليس فيكِ ! اخرجي من عالم الكذب والنفاق إلى العالم الوسيع من الصّدق والحقيقة العظمى. كوني حيث موقعكِ من الوجود، لم تكوني شيئًا مذكورًا، وخلقكِ من نطفةٍ أمشاجٍ يبتليكِ ، فجعلكِ سميعة بصيرة.

يا نفس تخلّقي بأخلاق اللّه

يا نفسُ ! تخلّقي بأخلاق الله، واخرجي من ظلمات الكبر والغرور، وادخلي في أنوار الكبرياء والآلاء. واخرجي من ظلمات البخل والشّحّ، وادخلي في أنوار الكرم الإلهيّ. واخرجي من ظلمات الشّهوات واللذّات الحسّيّة، وادخلي في أنوار المباهج الروحيّة. واخرجي من حبّ الدنيا إلى أنوار حبّ الله. واخرجي من الأنانيّة الضيّقة إلى الإنّيّة الرّبّانيّة. واخرجي من ظلمات حبّ المقام والعلوّ، وادخلي في أنوار الاهتمام بالدار الآخرة. واخرجي من ضيق آفاق الادّعاء والتّفاخر، وادخلي في سعة آفاق التّواضع.

يا نفسُ ! هو منزّه عن الشّهوات. فما حاجته إلى الشّهوات، واستمراريّة الجنس، كما هو في البشر والحيوان والنبات ! فهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد. ولم يكن له صاحبةً ولا ولدًا. إنّما الشّهوات في المخلوقات التي عندهم حواس، والله سبحانه وتعالى خالق المخلوقات، وهو منزّه عن الحواس والأدوات، يخبر لا بلسان ولهوات، ويسمع لا بخروق وأدوات، يقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحفّظ، ويريد ولا يضمر، يقول لمن أراد كونه: كن، فيكون، لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه. لا يلويه شخص عن شخص، ولا يلهيه صوت عن صوت، لا يحويه المكان لأنّه لبكلّ مكان، ولا يحويه الزّمان لأنّه في كلّ حين وأوان، ومع كلّ إنس وجان.

يا نفسُ ! اعلمي هو الوجود الأصيل وحده، وغيره تعيّنات ومظاهر واعتباريّات، فإذا علمتِ ذلك واستوعبتِه خير استيعاب، تبيّن لكِ أنّ غير الله من جنس الشّرك، ورجعتِ بكلّ وجودكِ إلى الوجود الأصيل، واستغنيتِ عن الوجود الاعتباري، الذي هو سراب وأوهام، ومفهوم

خاطئ، يختصّ فقط بمستوى إبليس السّافل، حيث كلّ ما عنده هو الافتراضات والاعتباريّات والتعيّنات والمظاهر، فقد حجبه الله عن الإصالة في الوجود. فهو الشرك المطلق.

يا نفسُ ! يا ليتك تخلّصت من المفاهيم الاعتباريّة، ورجعتِ إلى مفهوم الإصالة في الوجود! يا نفسُ ! إنّ كلّ ما تفترضينه سراب وأوهام، وكلّ ما تعتبرينه سراب وأوهام. فإلى متى تجرين وراء السّراب !

يا نفسُ ! إنّ الحقيقة العظمى موجودة فينا وليست عنا ببعيد، لكن الفهم الخاطئ هو السّدّ المانع، وما أصعب هدم هذا السّدّ !

يا نفسُ ! إنّ المشكلة الكبرى بشأن إبليس هو نفوذه في نظامكِ العصبي والفيسيولوجي، فحتى الفهم والاستيعاب لا يجدي مع هذا السّدّ الشّيطاني المنيع القائم في وجودكِ.

لزوم السّير والسّلوك

يا نفسُ ! لذا لزم تغيير النّهج الفكريّ العمليّ في الحياة، والدخول في السّير والسّلوك، حيث المقاومة الفعليّة لسلطان التيّارات المختلفة من هذا السّدّ الشّيطاني المنيع، من الشّهوات والنوم والكبر والغرور وشحّ النّفس، والتي هي أجزاء مهمّة من هذا السّدّ الشّيطاني المنيع.

يا نفسُ ! إنّ التّعاطي مع هذا السّدّ الشّيطاني المنيع شيء صعب وعسير، لذا فالسّير والسّلوك مشوار طويل، يستحقّ منكِ هذا العمر القصير، لأنّ الدنيا هي الفرصة الوحيدة والمزرعة الوحيدة لبناء الآخرة، ولا بدّ منها لهدم هذا السّدّ من ظلمات الجهل المتجذّر المتأصّل فيكِ.

يا نفسُ ! كم تقولين ولا تفعلين ! لأنّ هذا السّدّ ممتنع عنيد. لذا فالعمل الجادّ المستديم، وهمّة العاشقين، تنجح في نهاية المطاف، في انقشاع ظلم الجهل وهدم السّدود.

يا نفسُ ! أتعجّب كيف يعيش هذا الإنسان الشّاذّ الاعتباري في نشأة الخلود، حيث لم يستهدف الإصالة في حياته، بمعنى توبته وعودته إلى الإصالة الموجودة فيه، أو ما نسمّيه بالجانب الإلهي من وجوده ! وإذا لم يكن الإنسان أصيلًا، فهو كالأنعام بل هو أضلّ، لأنّه من الغافلين.

يقول الله تعالى[1] : { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }. ويقول تعالى[2] : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ

[1] سورة السجدة الآية ١٣.

[2] سورة الأَعراف الآية ١٧٩.

قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }.

يا نفسُ ! حقًّا أقول إنّ الله خلق الموت والحياة ليبلونا أيّنا أحسن عملًا. يقول الله تعالى[1]: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}. وما أندر الناجحون في هذا الامتحان !

[1] سورة الملك الآية ٢.

يا نفس استثمري كنوزك

يا نفسُ ! مثل وجود هذا الإنسان الشّاذّ الاعتباري في هذا الوجود البحت البسيط كمثل الأنعام بل هم أضلّ. لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. وهبهم الله في أنفسهم كنوزًا لا يقدّرونها حقّ تقدير، ولا يستثمرونها حقّ استثمار، ويذهبون عن هذه الدنيا وهم كالأنعام بل هم أضلّ.

يا نفسُ ! كوني أصيلة في هذا الوجود البحت البسيط. أتعجّب كيف يكون مصير الإنسان وهو يحمل معه جنس الشّرك في دار الخلود والبقاء !

يا نفسُ ! أخاف عليكِ أن لا تستثمري كنوزكِ في هذه الحياة الدنيا، ثمّ تذهبي عنها كما تذهب الأنعام. أخاف عليكِ أن لا تعودي إلى إصالة الوجود، فتموتي وليس لكِ إصالة في هذا الوجود.

يا نفسُ ! جنس الشّرك يتنافر عن رتبة التّوحيد، كتنافر الجهل عن رتبة المعرفة، وتنافر سوء الخلق عن حسن الخلق، وتنافر الغضب عن الحلم، وتنافر الشّحّ والبخل عن الجّود والكرم، وتنافر الشّبق عن العفّة.

يا نفسُ ! افتحي عينيكِ ! هكذا خلقنا الله، ونحن مسلّمون له تسليمًا كاملًا، ومقرّون له بالرّبوبيّة. إذن يجب أن تتعاملي مع نفسكِ، كما يتعامل السّالك مع نفسه، في ذكر دائم مستديم، وجهاد وتعب ونصَب، من دون كلل ولا ملل، حتى تصلي في حياتك القصيرة هذه إلى الجانب الإلهي من وجودكِ، كاملًا غير منقوص، لأنّه إن لم تصلي، فأنتِ في خُسْرٍ، والله غنيّ عنكِ.

يا نفسُ ! كيف أشرح لكِ أهمّية هذا الموضوع، إنّه أمر حياتيّ هامّ، إنّه أمر يخصّ وجودكِ أنتِ في عالم الخلود، كيف تريدين أن تكوني هناك في المليارات من السّنين، بل أكثر من ذلك. وهل هذا أمر بسيط ؟

يا نفسُ ! للوصول إلى رتبة التّوحيد يجب أن تتخلّصي نهائيًّا من جنس الشّرك، سواء كان الشّرك الظّاهري أو الشّرك الباطني في شكل الشّرك الخفيّ.

يا نفسُ ! إنّ موضوع السّير والسّلوك أمرٌ حياتيّ، وهو أهمّ شيء في الحياة، لأنّه يخصّ حياة الخلود. وليس أمرًا تفنّنيًّا أو علم الأخلاق، كما يسمّونه، أو علمًا من العلوم، يغنيكِ عنه باقي العلوم.

يا نفس لا بد أن تصلي إلى ماهيتك الأصيلة

يا نفسُ ! إذا اتّضح لكِ مفهوم التّوحيد لكان الأمر أسهل، ولدخلتِ في العمل الجّادّ الدؤوب في السّير والسّلوك.

يا نفسُ ! أعلنُ على الملأ بأنّ البشر يعيشون في جنس الشّرك، وإذا أردتِ أنتِ يا نفسُ ! أن تكوني من القلّة النّاجية، فاتّبعي تعلياتي، ولا تجلسي مرتاحة، حتى تكمّلي المشوار إلى بناء نفس مطمئنّة خالدة أصيلة بإصالة الله العليّ العظيم، الذي لا وجود إلّا وجوده، ولا إصالة إلّا إصالته.

يا نفسُ ! كيف أشرح لكِ حتى تفهمي، إنّكِ يا نفسُ ! ظاهرة من المظاهر، التي تولد، ثمّ تسير سير المنحنى صعودًا رويدًا رويدًا، إلى أن تصل إلى الذروة، ثمّ تسير سير المنحنى نزولًا من الذروة رويدًا رويدًا، حتى تختفي في نهاية الطريق.

يا نفسُ ! هل تحبّين أن تبقي ظاهرة ولا تعرفي ماهيّتك الأصيلة، وهل تحبّين أن تختفي ولا فكرة لكِ عن ماهيّتك الأصيلة.

يا نفسُ ! اعرفي نفسكِ، فأنت الدرّ في هذه المتراكمات من المزابل، التي تتكدّس بعضها فوق بعض، بحيث تفقدين النّظر إلى الدرّ، الذي هو وجودكِ الأصيل.

يا نفسُ ! اعرفي نفسكِ، ففيك انطوى العالم الأكبر، كما قال أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين الإمام عليّ عليه السلام. إن لم تصلي إلى العالم الأكبر فما هي أهمّية وجودكِ يا ترى ! تأكلين وتشربين وتنكحين وتنامين ! فهذا ما تفعله الحيوانات والبهائم ! ألهذا خلقتِ يا نفسُ ؟

يا نفسُ ! استثمري هذه السّنوات القليلة الباقية من عمركِ، لاكتشاف ماهيّتك الإلهيّة، التي تباهى بها الله حين قال عزّ من قائل[1] : { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

يا نفسُ ! اكتشفي خلقكِ الآخر الذي تباهى به الله، ثمّ حقّقيه في كلّ وجودكِ تحقيقًا، ولا تكوني من الأنعام بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون. العجيب في الإنسان أنّه إذا سما سموًّا كان أعلى من الملائكة، وإذا انحدر انحدارًا كان أسفل من البهائم !

يا نفسُ ! اختاري ما تريدين أن تكونين عليه: هل تريدين أن تكوني أعلى من الملائكة أو أسفل من البهائم ؟ لكِ الخيرة في ذلك، فاختاري مرتبة السّماء، ولا تختاري مرتبة البهيمة، التي همّها علفها.

[1] سورة المؤمنون الآية ١٤.

يا نفس اكدحي إلى ربّك كدحًا فملاقيه

يقول الله تعالى[1] : { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ }. فاكدحي كدحًا حتى تلاقي ربّكِ، في هذه الدنيا، قبل دار الآخرة، وقبل أن يدركِ الموت، وقبل أن ترهقكِ المنايا دون الآمال، وتشذّبك عن آمالك تخرّم الآجال، كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. فإنّ دون ذلك جهادًا أكبر من جهاد السّيوف والرّماح، فلا تضيّعي وقتكِ فتكونين من الخاسرين.

يا نفسُ ! لقد خلقكِ الله في مرتبة التّوحيد، في أحسن تقويم، فكانت فطرتكِ الصّافية البريئة، لكنّكِ نزلتِ إلى أسفل سافلين، إلى جنس الشّرك، بفعل الشّيطان وأعوانه من البشر الذين حواليكِ.

يقول الله تعالى[2] : { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ }.

ويقول الله تعالى[3] : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }.

---

[1] سورة الإنْشقاق الآية ٦.

[2] سورة التّين كاملة الآيات ١ – ٨.

[3] سورة الروم الآية ٣٠.

يا نفسُ ! فطرة الله التي فطر الناس عليها هي الدّين القيّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. فكم بدّلوا وكم غيّروا حتى شوّهوا بدائع خلق الله ! وشوّهوا فطرتهم الطيّبة الصّافية البريئة، ومسخوها مسخًا، ونسوا فطرتهم الأصليّة ، بحيث أنّني إذا تكلّمتُ عنها استغربوا وتعجّبوا من كلامي، وكأني أتكلّم إليهم عن شيء غريب عنهم، إلّا من رحم ربّي.

يا نفسُ ! ماذا دهاكِ ! أكلّمكِ عن الدرّ التي فيكِ، وعن العالم الأكبر الذي فيكِ، فتستغربين وتتعجبين ! وكأنّي آتٍ إليكِ من عالم المريخ، وأتكلّم إليكِ كلامًا غير مفهوم، وكلامًا غريبًا عليكِ لا تفهمينه !

وأنشأناه خلقًا آخر

يا نفسُ ! افهمي واستوعبي ! إنّ هذا الدرّ وإنّ هذا العالم الأكبر موجود فيكِ، فارجعي إلى نفسكِ، وتوبي وأوبي إلى أعماقها، ونظّفي الأوساخ والقذارات التي فيها، والتي كُدّست فيها طوال أيام الغفلة، التي غشّاكِ الشيطان فيها، وبقي هذا الدرّ وهذا العالم الأكبر مخفيًّا عن عيونكِ في قاع هذه المتراكمات والمكدّسات من النجاسات والقذارات.

يا نفسُ ! هو الذي أبدع فيكِ هذه البدائع، وأنشأ فيكِ خلقًا آخر، وتباهى بذلك قائلًا عزّ من قائل[1] : { فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } !

يا نفسُ ! لكنّكِ بدّلتِ وغيّرتِ، وشوّهتِ فطرتكِ الطيّبةِ الصّافية البريئة، ومسختِها مسخًا وأيّما مسخ، ونسيتِ فطرتكِ الأصليّة. ما بالك وإلى أين تسيرين !

يا نفسُ ! أين تذهب بكِ المذاهب ؟ وتتيه بكِ الغياهب ؟ فاستمعي إلى الحكيم حتى يرشدكِ، وذلك بحضور القلب، وعلاقة مفرطة بالحكمة والحقائق الرّوحيّة العالية السّامية. يا نفسُ ! استيقظي ! فلقد شرحتُ لكِ الحقائق، وسوف أستمرّ في شرح الحقائق، فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين.

يا نفسُ ! أخاف عليكِ أن لا تستضيئي بأضواء الحكمة، فإنّ فيها نجاتكِ وخلاصكِ، فلا تكوني ثفالة كثفالة القدر[2] ، أو نفاضة كنفاضة العكم[1] ، وكوني من المؤمنين القلائل، الذين استخلصهم الله من بين البشر، استخلاص الطير الحبّة البطينة من بين هزيل الحبّ.

---

[1] سورة المؤمنون الآية ١٤.

[2] ما يبقى في قاع القدر.

يا نفسُ ! لقد ذرأ الله الكثير الكثير من الجّن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون. يقول تعالى[٢]: { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }.

يا نفسُ ! كوني من القلائل الذين يستعملون القلوب والأعين والآذان الباطنيّة، التي أودعها الله فيكِ، حتى تكوني من المفلحين. يا نفسُ ! تجرّدي من المرئيّات، وانفذي في سماء ملكوتكِ، تبحثين عن هذه القلوب وهذه الأعين وهذه الآذان.

[1] صغار الحبوب في قاع الكيس.

[٢] سورة الأَعراف الآية ١٧٩.

مالي أراكم أشباحًا بلا أرواح

من كلام أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ[1] الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ[2] ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ.

قَدِ انْجَابَتِ[3] السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا[4] ، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا[5] .

مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلَا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلَا صَلَاحٍ، وَتُجَّاراً بِلَا أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ.

رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا[6] ، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا[7] ، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا[8] ، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ[1] ، فَلَا يَبْقَى

---

[1] حكّ الحجر بالحجر حتى اشتعل.

[2] التي ترتع.

[3] ظهرت.

[4] الذي اشتبه عليه.

[5] صاحب الفراسة.

[6] على محورها.

[7] تزنكم بميزانها ومعيارها.

[8] وتضربكم على رأسكم بكامل يديه

يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ[٢] ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ[٣] ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الْأَدِيمِ[٤] ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ[٥] ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ.

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ ؟ وَتَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ ؟ وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ[٦] ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ ؟ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ[٧] ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ[٨] ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ[٩] ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ[١٠].

وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ[١١] ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ[١٢] ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ[١] . فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ،

---

[١] الضلال.

[٢] ما يبقى في قعر القدر.

[٣] صغار الحبوب في قاع الكيس.

[٤] تلويكم كليّ الجلود.

[٥] وتدوس عليكم كالدوس على بقايا القمح والشعير.

[٦] وكيف تخدعكم أبواق الإعلام الكاذبة !!! وما أشبه الحاضر بالماضي !!!

[٧] ومن أين يأتيكم البلاء وإلى أين يأخذ بكم !!! وما أشبه الحاضر بالماضي !!!

[٨] استمعوا إلى عالمكم الربّانيّ.

[٩] وأحضروا قلوبكم في حضرته.

[١٠] إن هتف بكم العالم الربّانيّ ودعاكم، فاستيقظوا وأجيبوا داعي الله.

[١١] وليصدقوا أصحاب الصحف والجرائد، ولينبؤا الناس بالصدق والخبر الصحيح !!! وما أشبه الحاضر بالماضي!!!

[١٢] فلقد فلق لكم العالم الربّانيّ الحقائق كفلق الخرزة

وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ[٢] ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ[٣] ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ[٤] ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً، وَالْمَطَرُ قَيْظاً، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالًا، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً، وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً، وَالْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً.

---

[١] وسلخ لكم العالم الربّانيّ الأمر ، كما يسلخ جلد الشجر لاستخراج الصمغ.

[٢] وحمل علينا الدهر حملة السبع الضاري !!! وما أشبه الحاضر بالماضي !!!

[٣] وهدر جمل الباطل ونعق بعد سكوت !!! وما أشبه الحاضر بالماضي !!!

[٤] وهجروا بعضهم بعضا على الدين !!! وما أشبه الحاضر بالماضي !!!

رتبة النور والصفاء والعدل

يا نفسُ ! إنّ هناك مقابل جنس الظّلم جنسًا آخر، هو رتبة النّور والصّفاء والتّهذيب والتّمحيص، الذي هو العدل. فكما ذكرت آنفًا إنّ الفطرة التي فطركِ الله عليها هي الدّين القيّم، وهي أيضًا رتبة النّور والصّفاء والتّهذيب والتّمحيص.

يا نفسُ ! إنّ الظّلم هو رتبة الظّلمة، وهي صفة إبليس عليه لعائن الله، ومعلوم أنّ الإنسان يشعر بالأمن والأمان وهو في النّور، ويهتدي إلى الطريق وهو في النّور، ويشعر بالوحشة وعدم الأمن وهو في الظّلمة. ولذا قال الله تعالى[1] : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }.

يا نفسُ ! إنّ الأمن والأمان والهداية والإهتداء لهما علاقة كاملة بالنّور والعدل، والعدل والتّهذيب والتّمحيص هو مقابل الظّلم، والضلال وعدم الأمان لهما علاقة كاملة بالظّلم والظّلمة.

يا نفسُ ! فكلّما تحوّل الإنسان من الظّلمات إلى النّور، كان دليلًا على تحوّله من جنس الظّلم إلى رتبة النّور والصّفاء والتّهذيب والتّمحيص. كما قال الله تعالى[2] : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }. فهو الذي يتولّاهم بذلك، لأنّه عزّ وجلّ وليّهم.

---

[1] سورة الأَنعام الآية ٨٢.

[2] سورة البقرة الآية ٢٥٧.

يا نفسُ ! لكن الكافرين أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. يقول الله تعالى[1]: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }.

يا نفسُ ! من افترق عن الوليّ، الذي هو الله، طغت عليه أولياء الطاغوت وآلهة متفرّقون. كما قال الله تعالى[2] : { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }.

يا نفسُ ! إذا هيمن الشّيطان عليكِ فهو الظّلم بعينه، كما أخرجكِ من رتبة النّور والعّدل التي كنتِ فيها، وأنتِ في عهد فطرة النّور والصّفاء، إلى جنس الظّلم والظّلمات، التي تشوّهت فطرتكِ بها.

يا نفسُ ! إنّ جنس الظّلم يختلف عن رتبة النّور والصّفاء والعدل، كما يختلف جنس الشّرك عن مرتبة التّوحيد، وكما يختلف جنس التّلذّذ عن الأمن والأمان من الخوف والحزن والجهل والفقر.

يا نفسُ ! الشّرك والظّلم والتّلذّذ يجمعهم أصل واحد، وهو حبّ الدنيا، وجنس حبّ الدنيا يختلف عن جنس حبّ الله.

فجنس حبّ الله يشتمل على مرتبة التّوحيد، ورتبة النّور والصّفاء والتّهذيب والتّمحيص الذي هو العدل، ومرتبة السّعادة والنّفس المطمئنّة الخالدة، التي هي مرتبة الأمن والأمان المطلقة، التي تريحكِ من مقاساة الخوف والحزن والجهل والفقر.

---

[1] سورة البقرة الآية ٢٥٧.

[2] سورة الزخرف الآية ٣٦.

يا نفسُ ! أنا أتعجّب كيف تميلين إلى معاناة الخوف والحزن والجهل والفقر ! ولو عرفتِ حقّ المعرفة أنّ الضمان الوحيد هو حبّ الله، لتحوّلت رعونتكِ وصعوبتكِ إلى خضوع وخشوع، ولتفجّرتِ بكاءً ونحيبًا، كما تفجّرتُ في يوم من الأيام بكاءً ونحيبًا، حينما تذكّرتُ كيف ضيّعتُ عمري في الجهل وكلّ تبعاته، من التّفكير المعوجّ، والنّهج المعوجّ في الحياة، الذي لا يناسبني ولا يناسب إصالتي، ولم يكن هناك حكيم ووليّ مرشد ينقذني من براثن الاعوجاج، إذ كان كالسّبع الضاري ينهش لحم غزال بريء، وتذكّرتُ كيف أنّني كنتُ ذلك الغزال البريء !

يا نفسُ ! نزلتُ وانحدرتُ من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، أعاني الخوف، والعقد النفسيّة المهولة المخوفة، والجهل المطبق، لا أهتدي إلى سبيل الرشاد، تائهًا حيرانًا !

يا نفسُ ! كان هناك حنين إلى شيء ما لم أكن أعرفه في ذلك الوقت، بل بالأحرى كنتُ أعرف أن حنيني هو إلى شيء صعب التّحقيق، بعيد المنال، ولم أكن أتصوّره في متناول يدي، بهذه السّهولة !

يا نفسُ ! هاك قصّة يقظان ! وما أشبه قصّته بقصّتي !

الابن الضالّ يرجع إلى أصله

كان يقظان أحيانًا يسمع من أعماقه همسات لطيفة، تدعوه إلى الحريّة، وإلى الخروج من قفصه الذّهبي، ولكنّه لا يعيرها أذنًا صاغية. وكانَ يرى أحيانًا بصيصًا من النّور ينفذ إليه من كوّة القلعة، ولكنّه كان يدير ظهره ويعزف عن النّظر إليه.

ورويدًا رويدًا تحوّلت الهمسات إلى نداء وهاتف، يدعوه إلى العروج إلى السّماء والانقلاع عن الأرض، كأنّه نداء الوجود، يدعو ابنه الضالّ المسكين إلى الاتجاه إليه، والتوجّه إلى معارجه، والرّجوع إلى أصله، والتّوبة والإنابة إلى خالقه وفاطره، والاشتياق إلى أنواره، والتّوق إلى نجواه، والعروج إلى سماواته، والالتحاق بموكب النّور، والاتصال بمولاه.

وشيئًا فشيئًا بدأ يقظان يزيح عن عينيه أغشية العمى، ويستيقظ من سباته العميق، ويستعيد وعي الأزليّة والسّرمديّة، ويتذكّر الميثاق، الذي أعطاه في عالم الذّرّ، عندما سئل: <ألست بربّكم> فأجاب: <بلى>.

وتذكّر عبوديّته لربّ العالمين، وتعجّب كيف انجرف وراء السّراب، وحيلة المضلّين، هاربًا من جنّة النّعيم، إلى جهنّم الأوهام، التي تستعر بنار الجهالة، ومن ربّ شفيق رقيق، إلى وسوسة الشّيطان، ومصائد إبليس اللعين.

فاعترته حالة غير مألوفة: يهرب من الناس، ويتوارى عن الأنظار، ويقضي ساعات طويلة في خلواته وصلواته، يبكي بكاء الحزين، ويئن أنين الكليم، يذرف دموعًا على أيام جهالته وطيشه

وغفلته وغروره وتكبّره وعجرفته، لا يتنعّم بالحياة الطبيعيّة، ولا تبهجه عادات القوم، وأغلال الرّسوم والتّقاليد، ولا يهبّ مع الجماعة لإشعال نار شهواته.

وكان يتكلّم كلامًا غير مألوف، لا يفهمه أصحاب الغفلة، وكانوا يسخرون منه، لأنّهم كانوا يجهلون كلامه، ويعتقد بعضهم أنّه مسحور ويقولون: طرأت عليه أحوال عجيبة، ونظراته زائغة، وأقواله مبهمة، ينزوي عن الناس، ويحبّ الخلوات، ويبقى صامتًا مفكّرًا لفترات طويلة، لا يعير اهتمامًا لما حوله، كأنّه في عالم بعيد.

وكان البعض الآخر يعتقد أنّه قد مسّه الجنون، فهو يتكلّم عن نداء يسمعه، بل أحيانًا عن مشاهد يراها، مما لا يراها الآخرون، ويتمتم بكلمات غامضة، ويسهر الليالي في خلواته، ويعزف عن ملذّاتهم وشهواتهم، وحتى عن الرغبات والمطامع التي هي حطب الدنيا، ومصدر حركتها.

ولطالما غذّى حياته البهيميّة بحطب آماله اليابسة، ولطالما تبع تمنيّاته الزّائفة، وعاش معهم في سجن الطبع وإسارته، يتحرّك فيه في حلقات مفرغة، يكدح ويسعى كحمار الطاحونة، لا ينفذ من جلدة الطبع المخيف، إلى عالم آخر متحرّر من الجهل والظّنون، ومن رعاية وتربية الماضي الجهول، إلى عالم تشرق عليه الأنوار، وتسود فيه المعرفة واليقين.

ويتعجّب أصحاب الغفلة ويظنّون أنّه مريض أو مسحور، أو أنه قد خولط في عقله - كما يقول الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في خطبة همّام في نهج البلاغة:

> يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا !وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ.

ويقال: إنّه حاول مراراً الفرار من معبد الشّيطان - حيث الشّهوات والرّغبات - ولكن القلعة السّوداء تحرسها غلب الرجال، بيدهم مقامع من حديد، فمنعه الحرّاس من الفرار. وفي الأيام التالية اجتمع حوله مدّعو النزاهة والاستقامة، وحاولوا إبداء النصيحة له بترك الأوهام، وبألّا يفسد على نفسه وعلى الآخرين راحة البال التي اعتادوها تحت خيمة الملذّات والرغبات والشّهوات.

الدرّة البيضاء

إلّا أنّ يقظان موجود ملكوتيّ، انهال عليه ركام الأتربة، وغبار الفحم الأسود، وهو في طريقه إلى الأرض الملعونة، أثناء هبوطه من العوالم العلويّة. فهذا الركام الأسود من القمامة والأوساخ، توجد في داخله درّة هي أكثر شفافيّة، وأرقّ من جاذبيّة المغناطيس، وألطف وأحنى من رحم الأمّ، تحمل في ثناياها روح المعرفة والعرفان، حيّة نابضة، وبيضاء ناصعة، فمتى تُزال الأتربة، ويُغسل الغبار الأسود من فوق هذه الدّرّة البيضاء ؟

فهو لا يقتنع بكلام أهل الدنيا، ومنهم من يتظاهرون بالدّين، ويزدانون بثياب الصّلاح والسّداد، ولكن ديدنهم حبّ المال والنساء والشّهوات. وحتى العوالم العلويّة التي تكلّم عنها الأنبياء والأولياء قد تصلّبت في أيديهم، وأضحت حديثًا عن النساء والشّهوات والخمر والمسكرات، وتبلورت حديثًا دنيويًا، لا تشتمّ منه رائحة التّوحيد والتّجريد والملأ الأعلى والموجودات الملكوتيّة. فقد غطّت المادة أذهانهم، فهل إلى النّورانيّات والرّوحانيّات من سبيل ؟

وهل تنهار القصور الرّمليّة من فوق الأذهان، وتبدأ الصّلاة بحضور القلب، ويطّلع على الخلود والملأ الأعلى من نافذة القلب ؟ فمتى يخشع القلب ويبدأ الجمع في نورانيّته، ومتى يتبدّد الظّلام وتشرق الأنوار، ومتى يهدأ لغو اللسان، ويستقرّ القلب، وتشرق الأنوار في الجنان، وتسكن الأصوات، ويضمحلّ الهرج والمرج من القلب، الذي هو منزل القدسيّات، وتنزل السّكينة على روحه الحسّاسة المعذّبة التوّاقة إلى ربّها ؟

كان يقظان يردّد في قلبه هذه الكلمات المستقاة من حديث الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: << ربّ زهّدني في الدنيا، وأودع الحكمة في قلبي، وأنطق بها لساني، وبصّرني عيوب الدنيا، داءها ودواءها، وأخرجني سالمًا من هذه الدنيا إلى دار السلام >>.

سقوط أردية الموت

ويهتدي يقظان بنجم الشِّعْرَى في الليلة الظلماء، ويتيقّن أنَّه لا يمكن الوصول إلى دار السّكينة والسّلام من دون المعرفة. فيسلك سبيل العرفان، ويبدأ بإسقاط أردية الموت عن روحه، كما تسقط الشّجرة أوراقها في الخريف، انتظارًا لولادة جديدة في فصل الرّبيع.

وينفض غبار الظّلم عن كلّ جوارحه، جارحة جارحة، ويكشف حجب الظّلمات عن ذهنيّاته وأفكاره، ويبحث عن جذور الذنوب والمعاصي في أعماق أعماقه، ويصارع الشّياطين في ظلمات نفسه، ويبدأ بمعرفة نفسه ودقائقها وحيلها ومصائدها ومكرها وخداعها، حتى لا يلوم غير نفسه عدالة وإنصافًا، وحتى يجد بأمّ عينيه كيف تلعب الفئران والجرذان وترتع وتمرح في ظلمات نفسه.

وكيف يتأتّى ذلك من دون التعرّض لدورس المعرفة والحكمة، والإصغاء إلى النغمات اللطيفة من عالم العلويّات، ومن دون التسليم للتعليمات السّماويّة، وتطبيقها في نفسه درسًا درسًا ؟

إلّا أنَّها أصعب لون من ألوان التّلمذة، لا يحفظ فيها التّلميذ دروسه ويحشّي ذهنه، بل يطبّقها في نفسه، ويسقط كلّ الإضافات على فطرته العلويّة، وذلك بتصفية ذهنيّاته من كلّ ما اكتسبه خلال عمره، من محيطه وبيئته، من علم ناقص، ربّما كان ضربًا من ضروب الجهل المركّب.

وطبعًا تسهل صعوبات هذه التّلمذة، عندما تكون باحثًا عن ضالّتك. وهل تصل إلى السّعادة إلّا عندما تجد ضالّتك ؟ وهل ضالّة المؤمن غير الحكمة ؟

وأحكم شيء يربطك بالعالم السّفليّ هو التّعلّقات القلبيّة بمتاع الدنيا. وبالمعرفة يتيقّن الإنسان بأنّ المتاع لا يستحقّ كلّ هذه التّعلّقات القلبيّة، وكلّ هذه الرغبات والشّهوات والغرائز. فما أحسن أن ينقلع الإنسان عن المتاع، وأن يوجّه كلّ قواه القلبيّة والغريزيّة لإنقاذ الدّرّة البيضاء من هيمنة القمامة والأوساخ التي تراكمت عليها !

ورب قائل يقول: سأضحى فقيرًا ومحتاجًا إن أنا تركت تعلّقاتي بمتاع الدنيا، وهل الحاجة والفقر هي رسالة العرفان ؟ الجواب هو طبعًا <كلا>، فالزهد الذي يوصي به الله جلّت قدرته هو < أن لا تأسى على ما فاتك وأن لا تفرح بما أتاك >، وهو السّموّ والتسامي والتحرّر عن تعلقاتك القلبيّة بما فاتك أو أتاك من المتاع الدّنيوي.

فالعرفان لا يلغي قوّة العقل الماديّ أو عقل المعاش، فما أكثر الغنى والثروة بين العرفاء ! فغنى النبيّ سليمان عليه السلام ليس بسبب علاقته بالمال، وفقر النبي عيسى عليه السلام ليس بسبب قصر عقله الماديّ.

فكلاهما عارف زاهد في متاع الدنيا، لسموّهما وتحرّرهما من العالم السّفليّ وحبّ المال والجاه والدولة الأرضيّة، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم[1] : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }.

[1] سورة القصص الآية ٨٣.

الصبر مفتاح الفرج

لقد اهتدى يقظان إلى النّور في آخر النفق. ولم يحصل ما حصل له اعتباطًا وإنّما لذلك قصّة.

فلقد برزت في حياته مشاكل حادّة، فكأنما أنزل الله عليه امتحانًا حاسمًا كي يثبت من أيّ معدن هو: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }[1] .

فآثر الصّبر على الانتقام ممّن هم أسباب كلّ هذه المشاكل. فاستعان بالصّبر والصّلاة، يحذو حذو الآية الكريمة[2] : { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ }، لم يضيّع وقته، وانتهز كلّ فرصة سانحة للاستغراق في الصّلاة، وفي النجوى إلى خالقه، يشكو له حزنه وبثّه، ويستعطف رحمته، ويستنزل الصّبر والسّلوان.

وكانت تلك فترة جدّ عصيبة في حياته، لا تحتملها الجبال، لولا الصّبر الذي نزل على وجوده سكينة ورحمة. فكان يلتجئ إلى خالقه معتصمًا به متشبّثًا بحجزته، يردّد الآية الكريمة[3] في نجواه إلى ربّه: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }.

وكانت هذه الكلمة المقدّسة وردًا على لسانه، ليس في الصّلاة فقط، بل ملئ يومه وليله ما أمكن إلى ذلك سبيلًا. فاستلهم المعاني العميقة من هذه الآية الكريمة ... فانصبّت كلّ وجهته الفكريّة والعاطفيّة والعشقيّة، بل كلّ وجوده وخلاياه في الله، لا يرى غيره ولا يرجو سواه ... بل

---

[1] سورة الملك الآية ٢.

[2] سورة البقرة الآية ٤٥.

[3] سورة الفاتحة الآية ٥.

أصبح ورده وردًا واحدًا، ونهره نهرًا عظيمًا متدفّقًا تجاه المولى، لا يلوي طريقه، ولا يلتفت إلى أحد غيره.

وإذا اكتشف في نفسه ميلًا لغيره، استقام بمعونة الورد المقدّس، حتى يتحقّق له مضمون الآية الكريمة[1] : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ }.

كانت الضغوط العائليّة عليه كبيرة، وكان قد وصل إلى النقطة الحرجة من حياته - نقطة الاضطرار الكامل - وكانت القرارات المهمّة في حياته في مراحل تكوينها تنسج خيوطها الأخيرة. ولندع يقظان يسرد قصّته:-

لم أكن أعلم ماذا أفعل في قبال هذه الجبال من الضغوط والمشاكل والظّلم والجفاء والسبّ والإهانات، هل أهرب من البيت - وكيف يكون ذلك ممكنًا ولديّ أولاد صغار - أم هل أصمد صمود الأبطال، وأنتخب طريق الصّبر. ثمّ إنني إذا انتخبت هذا الطريق الصعب فمن أين لي القوّة لذلك ؟

وأخيرًا عقلت لساني عن الكلام، واخترت السّكوت الكامل في مقابل العناد والنشوز والسبّ واللعنات، واستغرقت في الصّلاة وأقمتها بحضور القلب.

وفي حالة البؤس والمسكنة والذلّ والاضطرار التامّ، كنت أطلب من الله أن يكرمني بتحمّل المصاعب، ويهب لي فضيلة الصّبر. وكنت أردّد كلام الله تعالى[2] : { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

---

[1] سورة فصلت الآية ٣٠.

[2] سورة البقرة الآية ٢٥٠.

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }. ومن أين لي الصّبر إلّا من عنده ! وهو القائل[1] : { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } !

[1] سورة البقرة الآية ٤٥.

العصافير المغرّدة لا ترضى بزقزقتها

فالإنسان موجود نسّاء متعثّر، لا يقيم أَمْته وأوده إلّا ذكر الله[1] : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }. وإذا اكتشف في نفسه إرادة العلوّ في الأرض وحبّ المال والجاه والنساء وغيرها، عرف حيلة الشّيطان وذكاءه في جريانه في الإنسان مجرى الدم، فيخاطبه: << إليك عنّي لا رغبة لي فيك فعمرك قصير وأجلك خطير >>. ويتذكّر الآية الكريمة[2] : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }، ويتذكّر غربته في الدنيا وانتماءه إلى الآخرة.

وتلك هي عبادة الله والعمل بوظيفة العبد الصّالح، والتطوّق بطوق نير عبوديّته. وهل العبوديّة إلّا عشق الرّبوبيّة، وتبعيّة المولى، والاستكانة إلى حبّه ومرضاته ! **فإن لم يرض بعبوديّة الله، كان كالعصافير المغرّدة، لا ترضى بزقزقتها، والماء العذب لا يرضى بعذوبته، والأشجار الباسقة لا ترضى بألوانها الخلاّبة، والمطر الزلال لا يرضى بالهطول إلى الأرض.**

فكان كمن يعيش في الانفصاميّة المريضة - هو في واد وواقعيّته في واد آخر - ينفصل عن إصالة وجوده، ولا يبقى منه إلّا الموجود المتمرّد والمهرّج المقلّد، يتمرّد على قوانين الطبيعة ونواميس الوجود، ويقلّد غيره، ويعيش حياة التكلّف والتهريج.

---

[1] سورة الذاريات الآية ٥٥.

[2] سورة القصص الآية ٨٣.

وهل عبادة الله إلّا القبول بعبوديّته، والاستسلام إلى معانيها العظيمة، والالتزام بوظائفها النبيلة ! فانظر إن كنت تستعمل عبادة الله، لنيل المال أو الجاه، أو امرأة تنكحها، فأنت في الحقيقة تعبد المال والجاه والملذّات الدنيويّة.

فأخلص نفسك لله وحده، وطهّر النيّات، وليكن هدفك الوحيد هو الله، وابتغ إليه الوسيلة في مصاحبة الأنبياء والأئمّة والأولياء والعرفاء والصالحين، وفي اكتساب تعاليمهم وشفاعتهم، للوصول إلى الله العليّ العظيم.

وكان يردّد هذا الدعاء << ربِّ أَدْخِلْنِي فِي كُلِّ خَيْرٍ أَدْخَلْتَ فِيهِ مُحَمَّدًا وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَخْرِجْنِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ أَخْرَجْتَ مِنْهُ مُحَمَّدًا وَآلِ مُحَمَّدٍ >>، وكان ذلك ورده الذي يردّده في صلواته في تلك الفترة العصيبة من حياته.

وقد تعوّد أن يطلب المعونة من الله وحده بقوّة الأوراد، وأن لا يستعين بغيره. فوجد أن الاستعانة بالله والاستغناء عن غيره قد فتحت عليه بركات من السّماء والأرض لم يكن يتوقّعها. وعلم أن المعونة والبركة من الله وحده، وأنّ المخلوقين فاقدون لذلك، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وقد تحيّر من الحقائق العجيبة التي اكتشفها ! فالدنيا تُقْبِلُ عليكَ إنْ أنتَ أدبرتَ عنها، وتُدْبِرُ عنكَ إنْ أنتَ أقبلتَ عليها، وأنّ الصّبر مفتاح الفرج، والحكمة ضالّة المؤمن.

وأخيرًا آتت الصّلاة والدّعاء والمناجاة أكلها وثمارها ... ونزلت السّكينة على قلبه، وبرزت جزيرة الهدوء والسّعادة في وسط الأمواج العاتية والعواصف المدمّرة. ورأى بأمّ عينيه كيف أنّ الصّبر يفتح أبواب الفرج.

يا نفسُ ! لقد قيَّض الله لي حكيمًا ووليًّا مرشدًا، أنقذني من ذلك العذاب، بل أكثر من ذلك بكثير، إذ عرجتُ منذ ذلك اليوم إلى السّموات العلى، وتحقّق لي ما لم أكن أحلم به !

يا نفسُ ! إنّ رتبة النّور والصّفاء مرتبة عظيمة، كانت معي حينما كنت في أحسن تقويم، ولكنّ انحداري إلى أسفل سافلين، كان قد حجب عني ذلك، وفكّرت أن مناله شيء صعب، في حين أنّه كان هناك في نفسي، وفي متناول يدي !

يا نفسُ ! كنت كالعيس في البيداء، يقتلها الظمأ، والماء فوق ظهورها محمول ! كنت كالحمّال معوزًا محتاجًا، وكان فوق ظهري صناديق الذهب والجواهر ! كنت شقيًّا، وكان تحت وسادتي كنز عظيم!

ضالّتي في كنانتي

ونزل الفرج من السّماء حيث فتحت أبوابها وينابيع بركاتها على العبد الصابر، وأودع الله حبّه في قلوب الصالحين من عباده. فتعرّف عليهم كما يتعرّف الرجل إلى ضآلته، التي كان يبحث عنها دهر الدهور.

وها هو يقظان يقصّ قصّته:-

كنت قد عيّنت أخيرًا رئيسًا لإحدى الدوائر، وكان من حسن حظّي أن مساعدي وسكرتيرتي كانا من الصّالحين. وكانا يستأذنانني ظهر كلّ خميس لحضور مجلس الشّيخ المقدّس. وكنت أسمع منهما بين الحين والآخر أشياء عجيبة وعظيمة عن الشّيخ .

ومن عجيب الصّدف أنني كنت التقيت في ذلك الوقت بصديق قديم من أيام الصّبا، وبدأنا نناقش معًا المسائل العلميّة والأدبيّة والثقافيّة ... مما ذكّرني بأيام الصّبا، وأيام النشاط الفكريّ، حينما كنّا نحلّق في السّماء، في كتابة مواضيع عالية من الثّقافة، وفي المناقشات العلميّة التي كانت تجري بين مجموعتنا في نادينا.

وفي ذلك الجوّ من ذكريات التّحليق في الأعالي ... وفي يوم من الأيام بعد ساعات العمل، كنت جالسًا مع مساعدي في الشركة، أشرح له اللذّات في عالم الكتب وفي المستويات الفكريّة العالية، وكم يحسّ الإنسان باللذّة والسّعادة حينما يناقش البحوث الفكريّة والعلميّة ويكتبها، وكم هو رائع أن ينفذ الإنسان في عوالم المجرّدات وما وراء الطبيعة !

فقال مساعدي: لدينا شيخ مقدّس عالم وعارف ومتبحّر في كلّ العلوم، حتى أنّ مجمع البحوث العلميّة في واشنطن - عاصمة الولايات المتّحدة الأمريكيّة - والتي تضمّ أكبر علماء الدنيا، قد انتهوا إلى مجهولات علميّة لم يجد العلم لها حلًّا، رغم كلّ النتائج التي تمخّضت عنها البحوث والتّحقيقات العلميّة في العالم. وأنّ هؤلاء العلماء الأفذاذ قد بوّبوا هذه المجهولات العلميّة في سِتّ عشرة بابًا، وأرسلوها إلى الشّيخ يطلبون منه الحلول.

والغريب في الأمر أنّ الشّيخ وجد الحلول وأرسلها إليهم، ثمّ إنّ هذه الحلول قد جُمعت بعدئذ في كتاب. فطلبت من مساعدي بأن يأتيني بالكتاب، فجاء به وقرأت الكتاب.

لقد كنت أعلم مدى عجز العلم في اكتشاف الحقائق، وأعلم بأنّ حجم المجهولات أكبر من المحيطات. ولكني لم أكن أتصوّر وجود علّامة من نوع البشر، مطّلعًا مطلًّا على محيطات المجهولات. لم أكن أتصوّر أن ضالّتي في كنانتي:

كَالعِـــيسِ فِي الْبَيْـــدَاءِ يَقْتُلُهَـــا الظَّمَـــا وَالْمَـــــاءُ فَـــوقَ ظُهُورِهَـــا مَحْمُـــولُ

وما أشبه البشر بالجمال في الصحراء، يقتلها الظمأ، والماء منها كقاب قوسين أو أدنى ! وعلمت أنني والبشرية جمعاء قد سلكنا طريق الخطأ، وانحرفنا عن الطريق الصّحيح. لقد كانت عندي تصوّرات بعيدة وعاتمة عن الأنبياء، ولم أكن أتخيّل أن باستطاعتي الوصول إلى عوالمهم، عوالم الفلاح والسّعادة والصّدق والرّوعة والمجد والحقّ.

ماء الحياة

واستمرّ يقظان في قصّته:

لقد فهمتُ جيّدًا ما قاله الشّيخ. وأمسى نجم المعرفة يتلألأ في عيني من بعيد. لقد كان موضوع <العقدة الحياتيّة> في القلب و<الخازنات المغناطيسيّة> في البدن جدّ شيق، وكانت قراءة هذا الكتاب من أحداث العمر التي لا تنسى. فطلبت من مساعدي أن يخبرني متى تكون هناك جلسة حتى أحضرها. وفي غضون أيام علمت أين تكون الجلسة ومتى.

وبدأت أحضر جلسات الدكتور ... ومنذ البداية أحسست بأنّ طريق فلاحي قاب قوسين أو أدنى. وفي غضون شهر من حضوري المستمرّ في الجلسات اتّضحت لي الصّورة أكثر فأكثر، وانتبهت شيئًا فشيئًا إلى وجوب تغيير جذريّ في أساليب حياتي، وأن أخلع عني تعلّقاتي الدنيويّة، وأتخلّى عن الخصال المذمومة، وأن أبدأ الطريق الصّعب في جهاد النّفس.

وبعد شهر كان قد تبلورت عندي النّيّة الصّادقة لاتّخاذ القرارات الصّعبة بالنسبة للتغييرات الجذريّة في حياتي. وذهبت في إجازة لمدّة شهر إلى لندن، وكانت فترة تأمّل لا بدّ منها، حيث رأيت الفيلم السينمائي باسم "الرسالة"، وكان قد عرض في لندن في أواسط السّبعينيات، عن حياة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله كاملة، وعلى الأخصّ الأيام الأولى من دعوته صلّى الله عليه وآله، وغزواته الأولى من بدر وأحد وغيرها. ولقد تأثّرت من هذه القصّة المرئيّة تأثّرًا كبيرًا - وكنت قد قرأت قبل ذلك كثيرًا- إلّا أن المرئيّ غير المسموع.

وبعد رجوعي حضرت جلسات الدكتور مرّة أخرى. وبعد شهر تبلورت التّحوّلات الباطنيّة، وبدأت حياة جديدة كأنني قد ولدت مرّة أخرى.

وشعرت وكأنني قد تعرّضت لقطرات الماء من معين الحياة الخالدة يرشّونها عليّ رشًّا، وللملذّات الفردوسيّة تدغدغ وجودي ... وكأنّهم يجرّبون عليّ ثمار الجنة.

[1] فَتَلَقَّتِ السُّقْيَا الطّهُورَ حِسَانُهَا ... سَكِرَتْ فَغَابَ الْوَعْيُ مِنْ سُقْيَاها

فَكَلامُنَا مَاءٌ جَرَى سَيَّالَةً ... عَذْبًا زُلالًا مِنْ عُيُونِ بَقَاها [2]

وَلَنِعْمَ مُزْنٌ [3] فَوْقَنَا فِي رَحْمَةٍ ... سَالَتْ عَلَيْنَا وَدْقُهَا وَسَخَاها

وَلَقَدْ شَرِبْنَا مِنْ عُيُونِ مَعِينِهَا [4] ... وَتَرَكْنَا مَاءً أَنْتَنَتْ بِغُثَاها

وَلَنَا الْعُيُونُ لِغَيْرِنَا أَفْلاجُهَا ... وَلَنَا الثُّرَيّا غَيْرُنَا بِثَرَاها

وَبِنَا تَرَنَّمَتِ الزَّبُورُ بِلَحْنِهَا ... وَبِنَا الْجِبَالُ وَطَيْرُهَا أَوَّاهَا

دَاوُدُ فِي الْمُلْكِ الْعَظِيمِ غَدَا بِنَا ... قَهْرَ الزَّمَانِ وَبِالدُّجَى بَكَّاها

وَبِنَا سُلَيْمَانُ الْحَكِيمُ تَهَاطَلَتْ ... كَلِمَاتُهُ كَالْوَدْقِ فَوْقَ ثَرَاها

أَيُّوبُ فِي عُسْرِ الزَّمَانِ وَصَبْرُهُ ... أيُ [5] التَّرَوِّي مِنْ شَرَابِ إِنَاها

طَفَحَتْ عَلَيْنَا مِنْ إِنَاءِ نُبُوَّةٍ ... مَاءُ الْحَيَاةِ وَخُلْدِهَا وَبَقَاها

عَيْنًا نُفَجِّرُ مِنْ زُلالِ مِيَاهِهَا ... رَوْحًا وَرَيْحَانًا وَمِسْكَ شَذَاها

سَحَرَتْهُمُ عَيْنُ الْحَيَاةِ فَأَصْبَحُوا ... يَتَرَنَّمُونَ بِمَدْحِهَا وَثَنَاها

دُهِشُوا [6] بِقِصَّةِ خِضْرِهَا وَمُرِيدِهِ ... فَتَنَتْهُمُ قِصَصُ الْبَقَا وَخَفَاها

طَفَحَتْ عَلَيْنَا عَذْبُ مَاءِ هِدَايَةٍ ... مِنْ كَأْسِهِمْ وَهُمُ مُلُوكُ حِبَاها [1]

---

[1] من كتابي السّموات السّبع.

[2] إشارة إلى عين الحياة التي اهتدى إليها الخضر عليه السلام والأولياء.

[3] المزن: السّحاب ذو الماء.

[4] المعين: الماء الجاري.

[5] آيُ: جمع آية: علامة.

[6] دَهِش أو دُهِش: تحيّر أو ذهب عقله من ذهول.

وَلَقَــدْ شَرِبْنَــا الْخَمْــرَ مِــنْ طَاسَــاتِهِمْ ... وَلَقَــدْ شَــفَفْنَا الخَمْــرَ مِــنْ حَسْــنَاها

ضَــاعَتْ خِيَــالُ وُجُــودِنَا فِي لَــيْلَةٍ ... يَا رَوْعَ مِــنْ دَيْجُورِهَــا [٢] وَضِــيَاها

وَالــرَّاحُ فِي رَأْسِ الْحَمَامَــةِ وَالْهَــوَى ... حَمَــلَ الْــوَلِيُّ كُؤُوسَهَــا فَسَــقَاها

وَمِــنَ الْكُــؤُوسِ الْفَــاخِرَاتِ شَرَابُهُــمْ ... وَعَــلَى قَــوَارِيرٍ ظِــمىً وَرِوَاهــا

فَسَــقَتْهُمُ الْغِــزْلانُ [٣] حَــرَّ نَبِيــذِهِ ... فَقَــدُوا بِــذَاكُمْ وَعْيَهَــا وَحِجَاهــا

إِكْسِــيرُ خُلْــدٍ فِي شَرَابِ مَحَبَّــةٍ ... وَفَنَــاءُ غَــيْرٍ [٤] فِي بُحُــورِ بَقَاهــا

وَأَنَا الْغَرِيــقُ بِحَــوْضِ خَمْــرِ شَرَابِهِــمْ ... وَمَدَامَــةٍ سَــكِرَتْ بِهَــا عُرَفَاهــا

طَافَــتْ طَوَافًــا بِالْكُــؤُوسِ عَلَــيهِمُ ... وَمِــنَ الــدَّلالِ وَغُنْجِهَــا وَغِنَاهــا

وَسَــقَاهُمُ رَبُّ الْعِبَــادِ شَرَابَــهُ ... طُهْــرَ الشَّــرَابِ لَــفِي صَــفَا سُــقْيَاها

---

[١] الحباء: العطيّة.

[٢] الديجور: الظلام.

[٣] الغزلان: كناية عن الجواري.

[٤] يعني غير الله.

وسقاهم ربّهم شرابًا طهورًا

وعند ذلك تلقّيتُ من الدكتور تعليمات التمركز على العقدة النورانيّة في القلب، وبدأت أمارسها وأقضي السّاعات الطوال في هذه الممارسات الشيّقة ... وكنتُ أشعر بقوى عجيبة تنزل على روحي، كأنّها تغسلها من الدرن وتهيّؤها لملاقاة الشّيخ.

يا نفسُ ! أذكر كيف كنتُ أرى النّور حول النقطة التي كنتُ أرسمها على الحائط بعد فترة من التّمركز، بل كنتُ أرى عمودًا من النّور يربط عيني بالنقطة. وما أشبه ذلك بشعاع ضوء الشمس، حينما يركّز على الورقة، فيحدث التهابها ثقبًا في الورقة ! وما أشبه القوّة التي نشعرها، بعد التّمركز على عقدة القلب النّورانيّة، بالتهاب الورقة من قوّة ضوء الشّمس !

يا نفسُ ! لا أنسى الليلة التي قابلتُ فيها الشّيخ المقدّس، فلقد سمعتُ منه كلامًا كأنّها قطع الجبال تسقط على صدري. وحين رجعت إلى منزلي **أخبرت ابني بأنّي قد سمعت الليلة كلام الأنبياء، وقد ضغط على صدري كوقع الجبال.**

ومنذ تلك الليلة بدأتُ أكتبُ رسائلي إلى الشّيخ، لأنّه لم يكن بإمكاني بيان مكنونات نفسي إليه في حضرته، لأنّ أرجلي كانت تخونني عن الحركة، ولساني عن الكلام في حضوره.

وفي رسائلي كنتُ أطلب منه أن يقبلني للتلمذة لديه، وكنتُ أبوح له بالانقلابات الجذريّة الباطنيّة التي كنتُ أتعرّض لها في تلك الفترة. وما أشبه هذه الملاقاة بما ذكره الله تعالى في قصّة

موسى والخضر عليهما السلام، حيث يقول في القرآن الكريم[1] : { فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا } !

وهكذا كان يقظان نائمًا، فاستيقظ من نومه، فصار يقظانًا ... وهكذا كان ينتمي إلى الفاني، فصار ينتمي إلى الحيّ.

ويسأل الولي: من هذا المختفي في ذلك الركن وماذا يريد ؟ فيقال له: إنّه يقظان جاء إلى محضركم للاستفاضة من النبيذ الرباني ... قال: أهلًا بالوارد الجديد ... اشملوه بالحفاوة البالغة، فإنّه ضيف الرحمن، وما علينا إلّا خدمته ... قالوا سمعًا وطاعة ...

وقام الولدان يخدمونه أحسن خدمة. وأمر الوليّ له بأحسن النبيذ[2] { وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا }. فقام يستشفّ الشّراب الإلهيّ ويسمع غناء الملائكة يملأ الفضاء، وقام من مقامه يترنّح تارة ويسقط أخرى وهو يقول: << لا إله إلّا الله .. لا إله إلّا الله .. لا إله إلّا الله >>.

[1] سورة الكهف الآية ٦٥.

[2] سورة الإنْسان الآية ٢١.

السعادة حاجة ملحّة في فطرتك

يا نفسُ ! هناك السّعادة والنّفس المطمئنّة، والأمن والأمان من معاناة الخوف والحزن والجهل والفقر. فالسّعادة من الحاجتين الملحّتين في فطرتك – السّعادة والبقاء - وقد عرّفهما معلّمي الربّانيّ الشّيخ صادق العنقاء قدّس الله سرّه في كتابه (سرّ البشريّة) أو (السّعادة والبقاء) ونشر في عام ١٩٧٣ وأيضا في كتاب (السّحر) للدكتور يوشي ميكي مايدا الياباني كالآتي:

هدف السعي والمجاهدات البشريّة هو السّعادة والبقاء. لهذا فالسّعادة والبقاء قانونان أصيلان فريدان، اللذان يضمّان كلّ السعي البشري من الطفولة إلى الموت.

وذكرت لكِ يا نفسُ ! في الجزء الثالث من كتابي (أسرار النفس البشريّة) في فصل (النفس المطمئنّة الخالدة) الآتي:

فلقد قلتُ لك بأن مساعيك كلّها متوجّهة إلى تحقيق السعادة والبقاء. ألا ترى أنك لا تحبّ الشقاء، وتحاول في كلّ مساعيك تحاشي الشّقاء وتحقيق السّعادة ؟ ألا ترى أنّك البتّة لا تحبّ الموت، وتحاول في كلّ مساعيك تحاشي الموت وتحقيق البقاء ؟

ففي كلّ محاولة من محاولاتك، تحاشيت الشّقاء وحقّقت سعادة نسبيّة، ثم انقلب السّحر على السّاحر، وتحوّلت السّعادة النسبيّة إلى شقاء. وحاولت مرّة ثانية دفع الشّقاء عنك وتحقيق السّعادة، ثمّ اكتشفت بأنّها سعادة نسبية، تتحوّل مرّة أخرى إلى شقاء. ثمّ حاولت مرّات ومرّات، وفي كلّ مرّة تكتشف بأنّ السّعادة التي حقّقتها نسبيّة، تتحوّل مرّة أخرى إلى شقاء.

فلنضرب مثلًا أنّك، في مقتبل العمر، تتمنّى وتقول: <لو كان عندي عمل يدرّ عليّ دخلًا، لكنتُ أسعد الناس>. ثمّ تحصل على العمل والدخل، ولكن ذلك لا يحقّق لك الرضا كاملًا. فتتمنى وتقول: <لو كانت عندي سيّارة، لكنتُ أسعد الناس>. ثمّ تكتشف بعد هنيهة أنّ ذلك لم

يحقّق رضاك كاملًا. فتتمنى وتقول: <لو كانت لي زوجة، لكنتُ أسعد الناس>. ثمّ تحصل على زوجة، وبعد هنيهة تكتشف بأنّها لا تحقق رضاك كاملًا، إن كانت زوجة طيّبة. أمّا إذا كانت زوجة سيّئة سليطة اللسان، فتكتشف بأنّك حصلت على الشّقاء بدل السّعادة.

ثمّ تتمنى وتقول: <لوكان عندي منزل أملكه، لكنتُ أسعد الناس>. فتبذل مجهودات جبّارة للحصول على قرض مصرفي لشراء منزل. ثمّ تكتشف بعد هنيهة أنّ ذلك لم يحقق رضاك كاملًا. وهلمّ جرًّا ... تبرز حاجات ماديّة أخرى، وتحسب أن تحقيقها يوصلك إلى السّعادة. ولكنّك في نهاية المطاف، تكتشف بأنّ إرضاء الحوائج الماديّة لا يوصلك إلى السّعادة المطلقة والنّفس المطمئنّة الراضية المرضيّة. وتتمنى لو كنت طيرًا حتى تنفلت من الشّقاء، وتحصل على ضالتك المنشودة !!!

مـرت بِنَـا سحـرًا طـيرٌ فَقلـت لَهَـا طـــوباكِ ياليتـــني إيّاكِ طـــوباك

وسؤالي الآن: هل حاجتك إلى السّعادة المطلقة والنّفس المطمئنّة الراضية المرضيّة قد جُعلت فيك عبثًا، وأن تحقيقها من المستحيلات ؟ وهل يمكن أن يودع الله فيك حاجة، ثمّ يجعل تحقيقها مستحيلًا عليك ؟ بالله عليك فكّر في هذا، ولا تكن من الكافرين !

وذكرتُ لكِ أيضًا يا نفسُ ! في الجزء الرابع من كتابي (أسرار النفس البشريّة) في فصل (عشق الله كنز عظيم) الآتي:

يا نفسُ ! ابتغي السّعادة والخلود والبقاء في بناء النّفس المطمئنّة الخالدة، التي لا تتزحزح قيد أنملة عن اليقين، ولا تموت كما تموت الجيف في القبور. أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة، وباقية خالدة لا تموت ولا تفنى.

فإنّهما - السّعادة والبقاء - حاجتان ملحّتان في فطرتكِ، ولكنّك لم تتعلّمي كيف تستثمريهما، أو أنّكِ لم تعيري التفاتكِ إلى نصائحي ومعاذلتي.

لقد بذّرتِ هاتين الحاجتين الملحّتين أيّما تبذير، وهدرتِ هذه الطّاقة الملحّة أيّما هدر، وسلكتِ الطريق الخطأ في إرضاء هاتين الحاجتين الملحّتين في فطرتكِ.

لماذا التلذّذ مشوب بالمعاناة

لقد قال نبيّ الله إدريس عليه السلام: يا نفسُ ! إنّ تحرُّزكِ من جنس التلذّذ يريحكِ من مقاساة الخوف والحزن والجهل والفقر.

والواضح يا نفسُ ! إنّ الأمن والأمان من الخوف والحزن والجهل والفقر هو السّعادة بعينها، وأنّ التلذّذ واللذّة شيء واحد. فيا ترى ما وراء التناسب العكسيّ بين اللذّة والسّعادة !

يا نفسُ ! لقد خلق الله الشّهوات واللذّات لحكمة عظيمة وهي استمراريّة الأجناس، فلقد خلق الشّهوة في الحيوانات لاستمراريّة ذلك الحيوان بعينه. ولقد خلق الشّهوة في الإنسان لاستمراريّة الجنس البشري. ولولاها لانقرضت أجناس الحيوانات، وانقرض الجنس البشري.

يا نفسُ ! إلّا أنّ أكثريّة البشر الذين لا يتحرّزون من جنس التلذّذ يبطرون ويطغون في الشّهوات، ويطلبون اللذّة من أجل اللذّة، والشّهوة من أجل الشّهوة.

يا نفسُ ! فإذا صارت الأمور على خلاف الحكمة الربّانيّة، بالإفراط في اللذّة والشّهوة، بدأ الصراع بين العقل والشّهوة، وبين الإقبال على الشّهوة والخوف من عدم القدرة عليها، وبدأ **انتقام الطبيعة** من معاناة الخوف والحزن والجهل والفقر.

لأنّ المطلوب يا نفسُ ! هو الاعتدال، كما في الحيوانات. فهي تمارس الشّهوة عند الحاجة، كما تأكل وتشرب عند الحاجة، لا إفراط ولا تفريط. لكن الإنسان لا يفعل كذلك، فهو دائمًا في إفراط وتفريط.

ولو التزم الإنسان بالاعتدال لكان كلّ شيء على ما يرام. ولو مارس الإنسان الشّهوة عند الحاجة، كما يأكل ويشرب عند الحاجة، لكان كلّ شيء على ما يرام. لكنّه يبطر ويطغى، ويطلب مزيد الشّهوة من أجل الشّهوة، ويطلب مزيد اللذّات من أجل اللذّات.

وهذا ما يتسبّب في نشوء العقد النّفسيّة، التي تسبّب الخوف والحزن والجهل والفقر، كما سوف نشرح في الفصول التالية.

وقد قال عيسى عليه السلام مخاطبًا الحواريّين[1] :

إن الله قد خلق الحواسّ، من أجل الحبور والبهجة والمسرّات، واللهو والبسط والملذّات، والحظّ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج[2]وحدها، كما يعيش البدن بالطعام والشّراب، ويعيش الرّوح بالعلم والمعرفة والعشق والمودّة والمحبّة.

إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب

[1] من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام.

[2] وهذه الحواس التي تتغذّى بمباهج الحياة، كما ذكرها عيسى عليه السلام، مطابقة لبرازخ الرّوح التي ذكرتها في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود)، وذكرت استقلاليّتها عن الرّوح، في أنّ لها وظائف أساسيّة في حياة الإنسان. وهذه الحواس متعطّشة لمباهج الحياة، في هذه النشأة وفي النشأة الأخرى، أي في دار الخلود. إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

ولهذا فإنّ المباهج تتضاعف أضعافًا مضاعفة في الجنّة، لخلوّها من الغيظ والحنق والسّخط والغضب والحرمان، الذي تحسّه هذه الحواس في هذه الدنيا، بسبب حرمان أبينا آدم من جنّات الفردوس، إثر المعصية التي ارتكبها بوسوسة الشّيطان. أو كما ذكر عيسى بالنصّ في مكان آخر: ودع التائب يذكّر حواسه بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أن مثقال ذرّة من مباهج الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة.

وعلى صعيد آخر، فإنّ عذاب الحرمان يتضاعف أضعافًا مضاعفة في نار الجحيم، لغيظ الحواس وحنقها وسخطها وغضبها من حرمانها المضاعف من جنّات النعيم. أو كما قال عيسى بالنصّ في مكان آخر: فدع التائب يذكّر الحواس بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود.

ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم. لهذا فإنّ هناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الروحيّة، بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون تغذيتها بالملذّات الشّهوانيّة. هل تفهمون ؟

الصوم عن اللذّات الجنسيّة

ولأجل تحاشي الإفراط في اللذائذ والشّهوات، ولأجل لجم عنان الشّهوات، ولأجل كبح الشّبق، يجب غضّ النّظر والبصر، والصّوم عن اللذّات الجنسيّة، كما ذكرتُ في الجزء الرابع من كتابي (أسرار النّفس البشريّة) في (المقدّمة) كالآتي:

إنّ التلذّذ والشّهوات مرتبطة بالحواس، فإنّ الله قد خلق الحواس، من أجل الحبور والبهجة والمسرّات، واللهو والبسط والملذّات، والحظّ والرضا وطيب الخاطر. وهي تعيش بهذه المباهج وحدها، كما يعيش البدن بالطعام والشراب، ويعيش الرّوح بالعلم والمعرفة والعشق والمودّة والمحبّة.

فإذا لم تريدي تغذية الحواس بالملذّات الشّهوانيّة، فهناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الرّوحيّة.

إذا لاحظ الخاطئ الأثيم، أنّه بمباشرته الشّهوة والملذّات الدنيويّة، قد أثم في حقّ خالقه، لأنّه وقع في شراك حواسه، ينبغي له أن يحزن على آثامه، لأنّها تبعده عن الله وعن الحياة، وتؤدّي به إلى العذاب الأبدي.

ولأنّ الإنسان في حياته الدنيويّة، يحتاج إلى هذه الملذّات الشّهوانيّة، لذا فإنّ الصّيام واتّباع الضّوابط ضروري، كي يستطيع الإنسان أن يكبح جماح حواسّه، وكي يعرف بأنّ لله الولاية[1] والسّيادة عليه.

[1] يجب أن تفهمي يا نفسُ ! وتوحي إلى نفسكِ الإيحاء الذاتيّ الإيجابيّ، كما يقال في علم النّفس، وتكرّري الإيحاء مليون مرّة وأكثر، وترسّخي في جذور أعصابكِ وفسيولوجكِ، بأنّ لله الولاية والسّيادة على شهواتكِ، وعلى فرجكِ وأدوات رجولتكِ وشهواتكِ. إنّها لله وليس لكِ يا نفسُ ! ولا حول لكِ ولا قوّة إلّا بالله. فإذا

وإذا رأى الإنسان أنّ الحواس تكره الصّيام وتبغضه وتمقته، فدعه يذكّرها بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود. ودعه يذكّرها بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة. وبذلك يسهّل عليه تهدئة الحواس وكبح جماحها.

فالأحسن أن تقنعي بالقليل في هذه الدنيا، لنيل الكثير في الآخرة، من أن تطلقي العنان للقليل، ثمّ تُجرّدي وتُحرمي من كلّ الملذّات والمباهج في الجحيم، وتبقي في عذاب جهنّم خالدة فيها.

بحقّ الحيّ الذي لا يموت، كم هو مقيت بغيض كريه، أن تصومي عن الطعام وحده، وفي الوقت نفسه، تملئي روحكِ بالعُجْب والغرور والتكبّر، وتحتقري أولئك الذين لا يصومون، وتستخفّي بهم، وتعتبري نفسكِ أحسن من الآخرين !

أخبريني يا نفسُ ! هل أنّ الرجل المريض يتباهى ويتفاخر بالحمية، التي فُرضت عليه من قبل الطبيب، ثمّ يسمّى أولئك الذين لم تفرض عليهم الحمية بالمجانين ؟ بالتأكيد لا ! ولكنّه يحزن لمرضه، الذي كان السبب في الحمية التي لا بدّ منها، والتي فُرضت عليه بالضرورة.

استقرّ هذا الفهم عملًا وفعلًا في كلّ ذرّة من ذرّات وجودكِ، وفي أعماق أعصابكِ وعقلكِ الباطن، استقام أمركِ، وتنفّستِ الصّعداء من العقد النّفسيّة، ومن الخوف والحزن والفقر والجهل.

برازخ الرّوح

هذه الحواس التي تتغذّى بمباهج الحياة، كما ذكرها عيسى عليه السلام، مطابقة لبرازخ الرّوح التي ذكرتها في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود)، وذكرتُ استقلاليّتها عن الرّوح، في أنّ لها وظائف أساسيّة في حياة الإنسان.

حواسك متعطّشة لمباهج الحياة، في هذه النشأة وفي النشأة الأخرى، أي في دار الخلود. إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

إنّ هذه المباهج تتضاعف أضعافًا مضاعفة في الجنّة، لخلوّها من الغيظ والحنق والسّخط والغضب والحرمان، الذي تحسّه هذه الحواس في هذه الدنيا، بسبب حرمان أبينا آدم من جنّات الفردوس ، إثر المعصية التي ارتكبها بوسوسة الشيطان.

أو كما ذكر عيسى بالنصّ في مكان آخر: ودع التائب يذكّر حواسه بمباهج الجنّة وملذّاتها، فهي عظيمة جدًّا، بحيث أنّ مثقال ذرّة من مباهج الجنّة وملذّاتها، أعظم من كلّ المباهج والملذّات الدنيويّة مجتمعة.

وعلى صعيد آخر، فإنّ عذاب الحرمان يتضاعف أضعافًا مضاعفة في نار الجحيم، لغيظ الحواس وحنقها وسخطها وغضبها من حرمانها المضاعف من جنّات النعيم.

أو كما قال عيسى بالنصّ في مكان آخر: فدع التائب يذكّر الحواس بحالة الجحيم، حيث لا ملذّات البتّة، بل حزن وشجى غير متناه وغير محدود.

ومن كتاب للإمام عليّ عليه السلام إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: << أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ[1] ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ[2] ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلاَ تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ >>. وكان ابن عبّاس يقول: << ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كانتفاعي بهذا الكلام >>.

ويقول عليه السلام: << وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِين >>.

ويقول عليه السلام: << امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ[3] ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ[4] ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ[5] ، وَغَرْبَ [6] لِسَانِكَ[7]، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ[8] ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ، فَتَمْلِكَ الاْخْتِيَارَ، وَلَنْ تَحْكُمْ ذلِكَ مِنْ نَفْسِكَ[9] حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ >>.

---

[1] يفوته الشيء: يذهب عنه إلى غير رجعة.

[2] يدركه: يناله ويصيبه.

[3] شدّة الغضب..

[4] طغيان الغضب. السَوْرة: الحِدّة، الحَدّة ـ بالفتح ـ : البأس.

[5] قدرتك.

[6] الغَرْب ـ بفتح فسكون ـ : الحدّ تشبيهًا له بحدّ السّيف ونحوه.

[7] سلاطة لسانك.

[8] سرعة الانتقام. البادرة: ما يبدو من اللسان عند الغضب من سباب ونحوه.

[9] ولن تتسلّط على نفسك.

ما هي المعاصي والذنوب

يا نفسُ ! لقد تبيّن لكِ في الفصول السابقة بأنّ اللذّة تتناسب عكسيًّا مع السّعادة، بمعنى كلّما زادت اللذّة تناقصت السّعادة، وكلّما تناقصت اللذّة زادت السّعادة. ولذلك نصحك نبيّ الله إدريس أن تتحرّزي من جنس التلذّذ كي تستريحي من مقاساة الخوف والحزن والجهل والفقر، التي هي عوامل الشّقاء.

يا نفسُ ! كذلك تتناسب اللذّة طرديًّا مع الشّقاء أو الخوف والحزن والجهل والفقر، وقد شرحت أسباب ذلك في الفصول السّابقة. والثابت أنّ جنس اللذّة ليس من جنس السّعادة، لكن الناس من جهلهم يسعون وراء اللذّة، ظنًّا منهم أنّهم يسعون وراء السّعادة، التي هي الحاجة الملحّة في فطرة الإنسان، كما ذكرت في الفصول السّابقة.

يا نفسُ ! ومن خضمّ هذا الجهل وممارسة اللذّات تتولّد الذنوب والمعاصي، لتداخل وظائف الحواس مع الفطرة السّليمة، والتي بتداخلاتها هذه تشوّش الحواس على الفطرة بالكثير من الذنوب والمعاصي - الفطرة تطلب السّعادة والحواس تطلب اللذّات. وأيضًا يبرّر هذا من قبل عيسى عليه السلام بقوله:

إنّ هذه الحواس الآن ثائرة وعاصية ومتمرّدة ضدّ الرّوح، لغيظها وحنقها وسخطها وغضبها من تجرّدها وحرمانها من مباهج جنّات الفردوس، بسبب ارتكاب المعصية من قبل أبينا آدم.

لهذا فإنّ هناك ضرورة قصوى لتغذيتها بالمباهج الرّوحيّة، بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون تغذيتها بالملذّات الشّهوانيّة.

يا نفسُ ! فيا ترى ما هي الذنوب والمعاصي !

يقول بشر الحافي: << إذا لم تكن في طاعة الله فلا تكن في معصيته >>.

يا نفسُ ! من كبائر المعاصي والذنوب هي ما اتّصف بها إبليس، وهو الكبر والتكبّر والتجبّر والعُجْب، والاعتراض على الله، وعدم التسليم له، وعدم الرضا بما يقضي ويقدر. وهي الذنوب التي يتّصف بها الناس في إيابهم وذهابهم وحلّهم وترحالهم، يقترفونها بكلّ سهولة في أيام حياتهم، ولا رادع لهم من ضميرهم. بل يبرّرونها بكثير من ظنونهم، وكأنما إبليس قابع فيهم وهو بالفعل كذلك. يقول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: << إنّ الشّيطان يجري في الإنسان مجرى الدم >>.

ويقول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: << لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ الْعُجْبَ الْعُجْبَ >>. أمّا التكبّر والتجبّر فيقول الإمام الصادق عليه السلام: << لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ >>.

يا نفسُ ! السّالك يراقب قلبه باستمرار في تفاصيل وارداته وخواطره، لئلّا يدخل العُجْب والكبر في صفحات قلبه. فإذا دخل تنبّه واستغفرالله من هذه الكبائر من المعاصي والذنوب.

يا نفسُ ! وكيف لا يتنبّه لها وهو الذي قطع أشواطًا من معرفة النّفس ! يقول الله سبحانه وتعالى[1] : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ }.

يا نفس ! بالإضافة إلى صفات إبليس لعنه الله، هناك ذنوب ومعاصي أخرى كثيرة: منها حبّ الدنيا وهو رأس كلّ خطيئة، كما ذكر الإمام زين العابدين عليه السلام.

ومن فروع حبّ الدنيا الحسد والظّلم والانتقام، وهي معاصي قابيل الذي قتل أخاه هابيل.

يا نفسُ ! من فروعها أيضًا اهتمامكِ بترّهاتها، ووضع أولويّاتكِ فيها، وإخلادكِ واطمئنانكِ إليها، والغفلة والاغترار بمغرياتها، وطول الأمل في تمنّياتها، والتسويف في التوبة منها، والحرص

[1] سورة آل عمران ١٣٥ - ١٣٦.

عليها وعلى رغباتها وشهواتها، وفضول النّظر، وفضول اللغو والكلام والشّبق، وشهوة الغيبة وشهوة سماع اللغو والغيبة، والتنافسات الدنيويّة وحبّ المال والنّفس وغيرها.

يا نفسُ ! من فروع الكبر الذي، هو صفة إبليس، العُجْب والغرور والطغيان، والاستهزاء والتهكّم بالناس، والجهل والعداوة والبغضاء والأحقاد، وحبّ الجاه والمقام والرئاسة والعلوّ، وجمع الاكتسابيّات والمعلومات طلبًا في العلوّ في الأرض، و لإظهار الفضل في الدنيا وغيرها.

يا نفسُ ! الذين هم مرضى بحب العلوّ والفساد في الأرض لا يمتّون إلى دار الآخرة بشي. يقول الله تعالى[1] : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

[1] سورة القصص الآية ٨٣.

جدول الذنوب ومكارم الأخلاق

يا نفسُ ! في هذا المقام نذكر جدولًا، مما تيسّر لنا في الوقت الحاضر، يتضمّن المعاصي والذنوب والرذائل في طرف، وفي الطرف الآخر مقابله من الفضائل ومكارم الأخلاق، وذكرنا ذلك على سبيل المثال لا الحصر، وحاولنا التطرّق إلى أمّهات المعاصي لا إلى الفروع، **علمًا بأنّ جذور كلّ المعاصي والذنوب هي ثلاث قوى هائلة كامنة في نفس الإنسان:-**

أ ـ الشّهوة الجنسيّة، وهي طعام الحواسّ في الإنسان.

ب ـ الحقارة الذاتيّة، وهي الجانب البهيمي في الإنسان.

ج ـ الخوف العصبي، وهو كامن في النظام العصبي والفسيولوجي والعقل الباطن في الإنسان.

أمّا طعام الحواس فيمكن استبدال الشّهوة الجنسيّة عند اللزوم بمباهج الرّوح عن طريق السّير والسّلوك.

أمّا الحقارة الذاتيّة فعلاجها التسامي على النّفس عن طريق السّير والسّلوك.

وأما الخوف العصبي في العقل الباطن وفي النظام العصبي والفسيولوجي فمشوار علاجه طويل طويل عن طريق السّير والسّلوك.

	المعاصي والذنوب والرذائل	الفضائل ومكارم الأخلاق
١	الكبر والغرور والتجبّر والعُجْب	التواضع
٢	حبّ الجاه والمقام والرئاسة والعلوّ	التقوى
٣	الاكتسابيات والإضافات على الفطرة	إسقاط الإضافات
٤	الاعتماد على المعلومات	الفناء في المعلوم
٥	الجهل	العلم والمعرفة
٦	الطغيان	الخشوع والخضوع وطمأنينة النّفس
٧	الاستهزاء والتهكّم بالبشر	الاحترام الكامل للآخرين
٨	العداوة والبغضاء والأحقاد	الحبّ والنصيحة
٩	الحسد	الإيثار
١٠	الانتقام	العفو
١١	الظّلم	العدل
١٢	حبّ الدنيا	الزّهد
١٣	الحرص	التجافي عن دار الغرور والإنابة الى دار الخلود
١٤	اهتمامات الدنيا	الاهتمام بالآخرة
١٥	رغبات الدنيا	الرّغبة في الله وفي دار الآخرة
١٦	التنافسات الدنيويّة	التنافس على الآخرة
١٧	الغفلة	التنبّه
١٨	طول الأمل	قصر الأمل وعدم التعويل على الدنيا
١٩	التسويف في التوبة	الجدية في السّير والسّلوك
٢٠	الشّبق	الاعتدال
٢١	شهوة النّظر وفضوله	غضّ البصر والتركيز على القلب
٢٢	شهوة الغيبة وسماعها	الاهتمام بعيوب النّفس والاشتغال بها
٢٣	شهوة اللغو وفضوله	الإعراض عن اللغو
٢٤	شهوة سماع اللغو	غضّ السّمع وسماع ذكر الله

٢٥	حبّ المال	حبّ الخير والإحسان
٢٦	حبّ النّفس	حبّ الله
٢٧	الشّكّ	اليقين
٢٨	الرّياء	الإخلاص
٢٩	الكفر	الإيمان
٣٠	الغضب	الحلم

مواعظ يحيى بن زكريا

يا نفسُ ! رب قائل يقول: < لم تذكر الزنا والسّرقة والقتل وغيرها >. أقول أنّه بالإضافة إلى ما ذكرت، هناك ذنوب أخرى لا يسع لها المجال هنا.

يا نفسُ ! فمن غضّ البصر، وركّز على القلب، واعتدل في اهتماماته الجنسيّة في إطار الأحكام الشّرعيّة، تخلّص من الزنا. ومن انتزع انتزاعًا من حبّ المال، وانهمك في كسبه الحلال، أفلح ونجى من السّرقة. ومن تبرّأ من العداوة والبغضاء والأحقاد والانتقام والظّلم لم يرتكب قتلًا.

يا نفسُ ! ومن تسامى لا على الرذائل فقط بل على الفضائل أيضًا، وارتفع إلى مكارم الأخلاق، لم ينتقم حتى من عدوّه. ثمّ عفا عمّن ظلمه، ووصل من قطعه، وأحسن إلى من أساء إليه. فإذا عرف عدوّك ذلك، أمنك وارتاح إليك، كما قال الله تعالى[1] مخاطبًا نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم: " { وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ }. وكما في قول بشر الحافي: << لا تصل كمال الإيمان ما لم يأمن جانبك عدوّك >>.

يا نفسُ ! ومن تسامى على الرذائل والفضائل، وتخلّص من الدنيا والآخرة، وتخطّى الكفر والإيمان معًا، وجعل قلبه خاليًا من غير الله، وانقطع إلى الله كمال الانقطاع، رفعه الله مكانًا عليًّا. يقول الله جلّ وعلا في حديثه القدسي: << من انقطع إلينا رفعناه مكانًا عليًّا >>.

يا نفسُ ! فأنت هو ما تطمح إليه، وأنت ما هو منتهى أملك. يقول الرسول الأعظم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم: << الدّنيا حرامٌ على أهل الآخرة، والآخرة حرامٌ على أهل الدّنيا، والدّنيا والآخرة حرامٌ على أهل الله >>.

يا نفسُ ! وفي ذكر أساسيّات الفضائل ومكارم الأخلاق نذكر قصّة يحيى عليه السلام كالتالي:-

---

[1] سورة آل عمران الآية ١٥٩.

[1] إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ: عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ تَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أُبَلِّغَهُنَّ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ، أَوْ يُخْسَفَ بِي، قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، وَقُعِدَ عَلَى الشُّرَفِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ:

١- أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ: رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي عَمَلَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ, فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

٢- وَأَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا.

٣- وَأَمَرَكُمْ بِالصِّيَامِ, فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ: رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ، فِي عِصَابَةٍ - أَيْ جَمَاعَةٍ - كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

٤- وَأَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ: رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَرَّبُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ، فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ.

٥- وَأَمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ: رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنَ مَا يَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[1] حديث عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم. ورد أيضًا في مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَالنَّسَائِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ.

نظم السّلوك وفرن الرياضة

يا نفسُ ! إنّ الذنوب والمعاصي تتولّد من رحم الجهل وممارسة اللذّات، لتداخل وظائف الحواس مع الفطرة السّليمة، والتي بتداخلاتها هذه تشوّش الحواس على الفطرة بالكثير من الذنوب والمعاصي - **الفطرة تطلب السّعادة والحواسّ تطلب اللذّات.**

يا نفسُ ! للخروج من هذا المأزق، لزم عليكِ نظم السّلوك وفرن الرياضة، حتى تخرجي من الذنوب والمعاصي وتنقطعي إلى الله بكلّيّتك. أضرب لكِ أمثلة من الوزن الثقيل من أمثال معروف الكرخي وبا يزيد البسطامي، حتى تحتذي بهم حذو النعل بالنعل، وتصلي إلى الله بكليّتك.

يروى أنّ معروف الكرخي - حاجب الإمام الرضا عليه السلام - قد رآه أحد أصحابه في المنام فقال له: < ماذا فعل الله تعالى بك؟ >. قال: < لقد غفر لي >. قال: < بسبب ورعك وزهدك؟ >. قال: <لا ! بل في كلام سمعته من ابن السمّاك في الكوفة> حيث قال: <<من انقطع إلى الله تعالى بكليّته تغمّده الله برحمته وأرجع الخلق إليه>>.

فإنّ هذا الكلام قد وقع في قلبي وقعًا شديدًا، ورجعت إلى الله بكليّتي، وأفرغت نفسي من كلّ الأشغال إلّا شغلًا واحدًا، وهو خدمة الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام. وأخبرت الإمام عليه السلام بكلام ابن السمّاك فقال لي عليه السلام: << إذا كنت تقبل بهذا الكلام فذاك يكفيك >>.

يا نفسُ ! نعم الشرط هو قبول كلام ابن السمّاك، وبذلك تتحقّق المصداقيّة وإلّا فلا. فمجرّد كلام الأولياء وسماع حديثهم، من دون جدّية وصدق نوايا، والذي يمرّ عليه السّامع مرّ الكرام، ولا ينتهي به المطاف إلى تغيير نهج حياته تغييرًا جذريًّا، لا مصداقيّة له البتّة.

يا نفسُ ! القبول ليس قبولًا بلقلقة اللسان، بل هو العمل الجدّيّ الصّادق في دخول سلك التربية العرفانيّة والسّير والسّلوك، وذاك ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام روحي له الفداء.

فما ذكره ابن السمّاك في قوله: << **من انقطع إلى الله تعالى بكليته تغمده الله برحمته وأرجع الخلق إليه** >> كان له أثره العظيم في قلب معروف الكرخي، حيث وقع في قلبه وقعًا شديدًا، حتى عمل بكلّ طاقاته لتحقيق هذا الهدف من حياته وهو **الانقطاع إلى الله بكليّته**.

وأخيرًا تحقّق له هذا الهدف ورجع إلى الله بكليّته. فالانقطاع إلى الله هو الهدف من جهاد السّالكين ومنتهى أمل العارفين، وهذا يحتاج إلى نظم السّلوك.

يا نفسُ ! اسمعي ما يقوله بايزيد البسطامي قدّس سرّه، وهو يحكي عن طريقه الشّاق الشّائق في السّير والسّلوك:

> كنت حدّاد نفسي لمدّة اثنتي عشرة سنة، وضعتها في فرن الرياضة، وأشعلت عليها نار المجاهدة، ووضعتها على سندان المذمّة، وطرقت عليها بمطرقة الملامة، حتى صنعت منها مرآة.
>
> وفي السّنوات الخمسة التالية كنتُ مرآة نفسي أنظّفها بأنواع الطّاعات والعبادات. ثمّ نظرتُ في نفسي فوجدت فيها عقدة من الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطّاعة والأعمال.
>
> وفي السّنوات الخمسة التالية حاولت جهدي أن أتجاوز تلك العقبة الكأداء، وأسلمت إسلامًا جديدًا. ثمّ نظرت فوجدت الخلق أمواتًا وكبّرت عليهم أربعًا ومررتُ على جنائزهم، وبعيدًا عن معاناة مخالطة الخلق، وبعون الحقّ وصلت إلى الحقّ.

يا نفسُ ! لقد احتاج بايزيد البسطامي إلى إثنين وعشرين سنة في السّير والسّلوك حتى وصل إلى الانقطاع إلى الله تعالى بكليّته، كما ذكره ابن السمّاك وأيّده الإمام الرضا عليه السلام. فما بالنا نحن إذن!!!

ولكن كلامه الشريف هو أقصر كلام في نظم السّلوك. وهذا ما امتاز به بايزيد قدّس سرّه في جوامع الكلام ودرر الحكم مع أمثاله من العرفاء الأوائل كأويس القرني وغيره.

يا نفسُ ! سألوه: < بأي شيء وصلت إلى ما وصلت إليه ؟ >. قال قدّس سرّه: << جمعتُ الزبارج من متاع الدنيا، وربطتُها بسلاسل القناعة، ووضعتُها في منجنيق الصّدق، ثمّ قذفتُ بها في بحر اليأس >>. ما أعظمها من جوامع الكلم تختصر جهاد الحياة في كلمات قصار !

معالم الهداية

يا نفسُ ! إنّ نظم السّلوك هذا هو على أحد عشر معلمًا من معالم الهداية[1] :-

١ـ وضع النّفس في فرن الرياضة.

٢ـ إشعال نار المجاهدة عليها.

٣ـ وضعها على سندان المذمّة.

٤ـ الطرق عليها بمطرقة الملامة.

٥ـ صنع مرآة النفس.

٦ـ صقل مرآة النّفس وتنظيفها بأنواع الطّاعات والعبادات.

٧ـ تجاوز العقبة الكأداء من الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطّاعة والأعمال.

٨ـ الإسلام الجديد.

٩ـ التكبير على الخلق أربعًا.

١٠ـ المرور على جنائزهم.

١١ـ الوصول إلى الحقّ، بعون الحقّ، وبعيدًا عن معاناة مخالطة الخلق.

[1] يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: "إلهي أَنْتَ ٱلَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ ٱسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْمَعَالِمُ ".

يبدأ السّالك في السّير والسّلوك، بعد إخلاص النّيّة وصدق الهدف، ويضع نفسه في فرن الرياضة. يا نفسُ ! إنّ رياضة النّفس هي كترويض البهيمة الوحشيّة. تتعذّب البهيمة كثيرًا حتى تستقيم على طاعة ربّها. وربّما أخذ هذا الترويض فترة طويلة حتى تتطوّع البهيمة شيئًا فشيئًا بالتدريج.

يا نفسُ ! إنّ ترويض النّفس البشريّة وتطويعها يأخذ مدّة أكثر بكثير، لأنّ النّفس البشريّة أكثر شراسة من الحيوانات الشرسة الوحشيّة. لقد أخذت هذه العمليّة عند بايزيد البسطامي إثني عشر عامًا. كانت نفسه في فرن الرياضة وكان يشعل عليها نار المجاهدة. فما بالنا نحن ! يا ترى كم تأخذ منّا من الوقت لترويض هذه البهيمة فينا !

يا نفسُ ! إنّ النّفس تميل إلى العيش في قفص المحدوديّة، أي أنّها تميل إلى نظام الأفعال وردود الأفعال العصبيّة، وهذا ما طبع عليه نظامه العصبي.

يا نفسُ ! إنّ القفزة من الجانب البهيمي في الإنسان إلى الجانب الإلهي تحتاج إلى مجهود جبّار ونظام صارم ـ ألا هو نظم السّلوك وطريقة السّير والسّلوك - هذا الجانب الإلهي الذي أشار إليه مولانا ومقتدانا الإمام عليّ عليه السلام بقوله :-

دَواؤُكَ فيـــكَ وَمـــا تُبصِـــرُ وَدَاؤُكَ مِنـــكَ وَمـــا تَشـــعُرُ
أَتَزعُمُ أَنَّـــكَ جُـــرمٌ صَـــغير وَفيـــكَ اِنطَـــوى العـــالَمُ الأَكـــبَرُ
فَأَنـــتَ الكِتـــابُ المُبـــينُ الَّـــذي بِأَحرُفِـــهِ يَظهَـــرُ المُضَـــمَرُ
وَمـــا حاجَـــةٌ لَـــكَ مِـــن خـــارِجٍ وَفِكـــرُكَ فيـــكَ وَمـــا تُصـــدِرُ

يا نفسُ ! إنّ النّفس البشريّة لا تميل إلى اقتطاع نفسها من دوّامة ردود الأفعال وإسارة النظام العصبي. أي أنّها لا تميل إلى السموّ على هذه النّفس والطواف بعيدًا عنها، ومراقبتها من فوق. ولله درّ الشاعر حيث يقول[1] :-

كَبَهَـــائِمٍ جَهِلَـــتْ بِسِـــرِّ وُجُودِهَـــا عَاشَـــتْ لِشَهْـــوَةِ لَيْلِهَـــا وَضُحَاهـــا [2]
وَكَجُلَّنَـــارٍ [3] لا تَـــعِي أَسْرَارَهَـــا وَكَيَـــاسِمِينٍ لا تَشُـــمُّ شَـــذَاها [4]
كَغَـــرَائِزٍ مُلِئَـــتْ وَظَـــائِفَ قُـــوَّةٍ تَحْـــدُوا [5] الحَيَـــاةَ عَـــلَى بَرَى [6] دُنْيَاهـــا
لَكِنَّهَـــا جَهِلَـــتْ وَظَائِفَهَـــا لِـــذَا بَطِـــرَتْ مَعِيشَـــتُهَا وَضَـــلَّ سُرَاهـــا [7]

يا نفسُ ! أليس هذا قفص الدنيا والمحدوديّة الضيّقة التي تعيشين فيه، في إسارة جهلكِ وغفلتكِ، رغم أنّكِ ينطوي في أعماقكِ العالم الأكبر، كما ذكر الإمام عليّ عليه السلام، ورغم أنّكِ تنتمين إلى اللانهائي في أصلكِ ؟

يا نفسُ ! فمتى يا ترى تقتطعين نفسكِ من القفص، وتصلين إلى العالم الأكبر ! لا سبيل إلى ذلك إلّا عن طريق نظم السّلوك الذي ذكره بايزيد البسطامي !

---

[1] كتاب السّموات السّبع للمؤلف فصل (سرّ الله العليّ).

[2] أي أنّ عيشنا في غفلة في غيرنا كعيش البهائم تعيش للشّهوة وتجهل نفسها وأسرار وجودها.

[3] الجلنار: زهر الرمان.

[4] فالجلنار والياسمين وغيرها من الأزهار والورود تعيش لغيرها فقط، ولا تعي أسرار نفسها وجمالها وزهاء ألوانها وطيب رائحتها، وَجَلَّ الإنسان الكامل عن مثل هذه المعيشة الغافلة.

[5] حداه: ساقه وبعثه.

[6] والبرى: التراب.

[7] والغرائز أيضًا تسوق الحياة بقوّتها الهائلة ولكنها لا تعي أسرارها فتنحرف عن وظائفها وتبطر وتضلّ، وَجَلَّ الإنسان الكامل عن مثل هذه الغفلة.

يا نفسُ ! فانظري مليًّا في سلوك الإنسان. إنّه تحدوه في هذه الحياة الدنيا ثلاث قوى هائلة كامنة في نفسه:-

أ ـ الشّهوة الجنسيّة.

ب ـ الحقارة الذاتيّة.

ج ـ الخوف العصبي.

علمًا بأنّ جذور كلّ المعاصي والذنوب هي ثلاث قوى هائلة كامنة في نفس الإنسان:-

أ ـ الشّهوة الجنسيّة، وهي طعام الحواسّ في الإنسان.

ب ـ الحقارة الذاتيّة، وهي الجانب البهيمي في الإنسان.

ج ـ الخوف العصبي، وهو كامن في النظام العصبي والفسيولوجي والعقل الباطن في الإنسان.

أمّا طعام الحواس فيمكن استبدال الشّهوة الجنسيّة عند اللزوم بمباهج الرّوح عن طريق السّير والسّلوك.

أمّا الحقارة الذاتيّة فعلاجها التسامي على النّفس عن طريق السّير والسّلوك.

وأمّا الخوف العصبي في العقل الباطن وفي النظام العصبي والفسيولوجي فمشوار علاجه طويل طويل عن طريق السّير والسّلوك.

يا نفسُ ! إنّ الإنسان يشترك في الشّهوة الجنسيّة مع البهائم. فهي تتجلّى في ذروتها في الإنسان بشكل الشّبق وشهوة النّظر وفضوله.

الحقارة الذاتية

يا نفسُ ! إنّ الحقارة الذاتيّة تتجلّى في الإنسان في أنواع مختلفة من الغضب والأحقاد والعداوات، التي تسمّى <الشّهوة الغضبيّة> في الفلسفة الإلهيّة.

أمّا في البهائم، فهي شهوة غضبيّة محضة لأنّها لا تشعر بالحقارة الذاتيّة البهيميّة الكامنة فيها.

أمّا في الإنسان فيشوبه شعور صارخ بالحقارة، وهذا ما يميّزه عن الحيوان. وأنّى للكائن الإلهي أن يبقى في القفص الضيّق ! رغم أنّ الأكثرية السّاحقة من بني البشر لا تنتبه بالوعي الكامل لهذه الحقيقة العظمى.

أمّا شعور الإنسان بها فهي حقيقة ثابتة، وهو شعور صارخ يظهر جليًّا في سلوكيّات الإنسان، يحدوه ويقوده في عذاب ونكد ومعاناة وكبد[١] .

يا نفس ! إن الإنسان مركّب من الشهوة الغضبية[٢] وعقل الملائكة، الذي هو عبارة عن حلمها وعفوها وتواضعها. فإذا كان عقل الملائكة وحلمها وعفوها وتواضعها غالبًا عليه صار أحسن من الملائكة. وإذا كانت الشّهوة الغضبيّة غالبة عليه صار أسوأ من البهائم[٣] .

يا نفسُ ! فكأن الكائن الملائكي في باطنكِ يشير صارخًا إلى الكائن البهيمي فيكِ بصفة الحقارة الذاتيّة ! فإذا تعرضتِ للاستفزاز والمهانة والتحقير شعرتِ بالحقارة الذاتيّة، فيكون ردّ فعلك الحقد والغضب والكبر والصّلف. فكأنّك تظنّين بأنّ ردود الأفعال هذه تمسح عنك الحقارة الذاتيّة، وتخلّصك منها !!!

---

[١] يقول الله جل وعلا في سورة البلد الآية ٤: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ }.

[٢] الشّهوة الغضبيّة هي الجانب البهيمي في الإنسان.

[٣] يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف الآية ١٧٩ " { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }.

يا نفسُ ! لو أنّكِ قوّيت الكائن الملائكي في وجودكِ، بصفات الحلم والعفو والتواضع، لاستغنيتِ عن ردود الأفعال هذه، لمسح الحقارة الذاتيّة، التي تنتمي إلى الكائن البهيميّ الكامن فيكِ.

يا نفسُ إنّ الغضب والأحقاد والكبر ما هي إلا ردود أفعال على الاستفزاز والمهانة والتحقير. فالمتكبّر يحسب كلّ شيء تحقيرًا له. يقول الله جلّ وعلا[1] : { إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ }.

يا نفسُ ! إنّ شهوة الغيبة وسماعها إن هي إلّا التشفّي والتعبير عن الأحقاد الدفينة. والثأر والانتقام ما هو إلّا ردّ فعل على الاستفزاز والتحقير، رغم أنّ الوجه الإيجابي له هو الانتصار للآخرين من ظلم ماثل، كما ذكره الله جل وعلا [2] : " { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ }.

يا نفسُ ! إنّ الاستفزاز والمهانة والتحقير تضرب بجذورها في الحقارة الذاتيّة أو عقدة الحقارة، كما يسمّيها علماء النّفس، وتضرب على أوتارها. وعلاج الغضب الحلم، وعلاج الأحقاد والثأر والانتقام هو العفو، وعلاج الكبر التواضع. لأنّ صفات الحلم والعفو والتواضع هي التسامي عن النّفس، والتفهّم للحقارة الذاتيّة الدفينة، ومن ثمّ الغلبة عليها، لأنّ هذه الصفات تنتمي إلى الجانب الملكوتي في الإنسان، الذي يجب أن يتغلّب على الجانب البهيمي فيه.

يا نفسُ ! فكما أنّ الحقارة الذاتيّة تعوّض الإنسان عن عقدتها بالكبر والصّلف والأحقاد والغضب، كذلك هي تعوّض صاحبها بحبّ الجاه والرئاسة والطغيان، والاستهزاء بالغير والحسد، وحبّ الدنيا واهتماماتها ورغباتها، والحرص والتنافسات الدنيويّة، وطول الأمل وحبّ المال وحبّ النّفس والظّلم والرّياء وغيرها.

---

[1] سورة غافر الآية ٥٦.

[2] سورة البقرة الآية ١٧٩.

يا نفسُ ! إنّ بعض هذه المعاصي والذنوب يشترك فيها الهاجس العصبي أيضًا. أمّا الجهل والغفلة فهما ينبثقان من الحقارة الذاتيّة، وعلاج الجهل العلم والمعرفة، وعلاج الغفلة العبرة والاعتبار، والتنبّه على هذه الحقارات.

يا نفسُ ! إنّ العامل الثالث وهو الخوف العصبي، فيتجلّى بمعاصي وذنوب كثيرة. فالحرص وحبّ المال هاجسهما الخوف من الفقر. وحبّ النّفس هاجسه الخوف من زوال النّفس. وحبّ الجّاه والرئاسة هاجسهما الخوف من المذلّة والاضطهاد. والحسد هاجسه الخوف من زوال النعمة. وحب الدنيا واهتماماتها ورغباتها وطول الأمل والتنافسات الدنيويّة هاجسها الخوف من زوالها.

أمّا شهوة اللغو وسماعه فهاجسها الخوف من الوحشة والاستيحاش، وهو خوف عصبي محض. أمّا الشّكّ وعدم الثقة فهاجسهما الخوف من زوال النعمة.

العقد النفسيّة

يا نفسُ ! وتوجد هناك هواجس عصبيّة هي في الواقع جروح في النظام العصبي، وتسمّى العقد النّفسيّة، يرجع عهدها إلى أيام الطفولة في غياب وعي الطفل. فتبقى في منطقة اللاوعي تهدّد الإنسان دائمًا، وتبقى بشكل الحركات اللاإراديّة، والهاجس العصبي، الذي يشغل حيّزًا من روح الإنسان وأفكاره وخواطره.

يا نفسُ ! وخلال أفران الرياضة ونيران المجاهدات، يكون العارف قد أبلى بلاء حسنًا، وواجه معظم الحجب الكثيفة التي تغطّي جذور العقد النفسيّة، التي ترجع إلى أيام الطفولة، التي تكوّنت عنده في غياب وعيه، واستقرّت في منطقة اللاوعي، ويكون قد خرق معظمها، وطوّع آثارها وأعراضها.

يا نفسُ ! إنّ الإنسان أسير هذه العوامل الآنفة الذكر ومملوكها ! أمّا السّالك فيجب عليه التسامي عليها، والتحرّر من إسارتها الظالمة ومملوكيّتها وعبوديّتها، والخلاص من الشّرك الخفيّ، إن أراد الدخول في العالم الأكبر والعبوديّة لله وحده من دون شريك.

يا نفسُ ! إنّ الطريق الصحيح هو التسلّح بالمعرفة والعرفان للسيطرة على الحقارة الذاتيّة المستبدّة، وتغليب الجانب الإلهي على الجانب البهيمي الذي هو الحقارة الذاتيّة بعينها، لا أن تكلي إلى الحقارة الذاتيّة المستبدّة، تعمل ما تشاء من الإجرام، وتعوّض الإنسان عن عقدتها، بالكبر والصّلف والأحقاد والغضب، وحبّ الجاه والرئاسة والطغيان، والاستهزاء بالغير والحسد، وحبّ الدنيا واهتماماتها ورغباتها، والحرص والتنافسات الدنيويّة وطول الأمل، وحبّ المال وحبّ النفس والظّلم والرّياء وغيرها.

يا نفسُ ! فبدل أن تتركي الحقارة الذاتيّة تعوّض عن عقدتها بالرذائل، يجب عليكِ أن تأخذي أزمّة الأمور بنفسكِ، وتضعفيها هي بعمليّة التزكية والجهاد الأكبر، وتحطّمي أنف الاستبداد الهدّام، الذي بدأ هو بالفعل بعمليّة هدم شخصيّتكِ.

يا نفسُ ! هذه الحقارة الذاتيّة هي الشّيطان بعينها، وهي القوة الهدّامة في أعماقكِ، تهدم وتهدم وتهدم، وتهدّد وتهدّد وتهدّد، وتتوعّد وتتوعّد وتتوعّد. فإلى متى يا ترى تتركيها تهدم وتهدّد وتتوعّد ! وإلى متى تتركين القوى الهدّامة هذه تعيث فيك فسادًا !!!

يقول الله جل شأنه[1] : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ }.

يا نفسُ ! ها أنا ذا أشرح لكِ الشّيطان وحبائله، وأفضح حيله ومكره ودسائسه، بطريقة علميّة سهلة، وبلغة حديثة مبسّطة، تلمسين بها هذه القوّة الهدّامة في وجودكِ بنفسكِ، وترينّ بأمّ أعينكِ كيف يعيث الشّيطان في أرضكِ فسادًا ؟

يا نفسُ ! أين عقلكِ الذي يضع الأشياء محلّها ؟ يا ليتكِ أخرجتِ هذه القوى الهدّامة من وجودك، وأحللته بالجانب الملكوتي، الذي هو بالفعل كامن فيكِ !

يا نفسُ ! يا ليتكِ أحللتِ السّكينة والهدوء محلّ الفوضى والاضطراب ! يا نفسُ ! هذا الاستسلام للهدم والتوعّد والتهديد هو والله عبادة الشّيطان، الذي يعيث فيكِ فسادًا، ولكنّكِ لا تشعرين !!!

[1] سورة يس الآية ٦٠.

جدول الذنوب وحوافزها

يا نفسُ ! فارجعي الآن إلى الثلاثين معصية وذنب ورذيلة، ثمّ بوّبيها من جديد، لتذكري جذور المعاصي وحوافزها أمام كلّ معصية، حتى يسهل عليكِ بعدها التحوّل من هذه الثلاثين إلى الثلاثين من الفضائل ومكارم الأخلاق، التي ذكرت آنفًا، ثمّ تتحلّين بها، **علمًا بأنّ جذور كلّ المعاصي والذنوب هي ثلاث قوى هائلة كامنة في نفس الإنسان:-**

أ ـ الشّهوة الجنسيّة، وهي طعام الحواسّ في الإنسان.

ب ـ الحقارة الذاتيّة، وهي الجانب البهيمي في الإنسان.

ج ـ الخوف العصبي، وهو كامن في النظام العصبي والفسيولوجي والعقل الباطن في الإنسان.

أمّا طعام الحواس فيمكن استبدال الشّهوة الجنسيّة عند اللزوم بمباهج الرّوح عن طريق السّير والسّلوك.

أمّا الحقارة الذاتيّة فعلاجها التسامي على النّفس عن طريق السّير والسّلوك.

وأمّا الخوف العصبي في العقل الباطن وفي النظام العصبي والفسيولوجي فمشوار علاجه طويل طويل عن طريق السّير والسّلوك.

	المعاصي والذنوب والرذائل	جذورها وحوافزها في النفس البهيمية
١	الكبر والغرور والتجبر والصّلف والعُجْب	الحقارة الذاتيّة وحافزها التحقير
٢	حبّ الجاه والمقام والرئاسة والعلوّ	الحقارة الذاتيّة والهاجس العصبي وحافزها خوف المذلّة
٣	الاكتسابيات والإضافات على الفطرة	الجهل المنبثق عن الحقارة الذاتيّة
٤	الاعتماد على المعلومات	الجهل المنبثق عن الحقارة الذاتيّة
٥	الجهل	الحقارة الذاتيّة
٦	الطغيان	الحقارة الذاتيّة والخوف العصبي من زوال النعمة
٧	الاستهزاء والتهكّم بالبشر	الحقارة الذاتيّة والخوف العصبي من المذلّة
٨	العداوة والبغضاء والأحقاد	الحقارة الذاتيّة وحافزها المهانة
٩	الحسد	الحقارة الذاتيّة وهاجسها الخوف من زوال النعمة
١٠	الانتقام	الحقارة الذاتيّة وحافزه الاستفزاز والتحقير
١١	الظّلم	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من الاضطهاد
١٢	حبّ الدنيا	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٣	الحرص	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من الفقر
١٤	اهتمامات الدنيا	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٥	رغبات الدنيا	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٦	التنافسات الدنيويّة	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٧	الغفلة	الحقارة الذاتيّة
١٨	طول الأمل	الحقارة الذاتيّة
١٩	التسويف في التوبة	الحقارة الذاتيّة
٢٠	الشّبق	الشّهوة الجنسيّة
٢١	شهوة النّظر وفضوله	الشّهوة الجنسيّة
٢٢	شهوة الغيبة وسماعها	الحقارة الذاتيّة وحافزها الحقد والمهانة
٢٣	شهوة اللغو وفضوله	الحقارة الذاتيّة وحافزها الوحشة

٢٤	شهوة سماع اللغو	الحقارة الذاتيّة وحافزها الوحشة
٢٥	حبّ المال	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من الفقر
٢٦	حبّ النّفس	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من زوال النّفس
٢٧	الشّكّ	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من زوال النعمة
٢٨	الرّياء	الحقارة الذاتيّة وهاجسه الخوف من زوال النعمة
٢٩	الكفر	الحقارة الذاتيّة وحافزه الجهل والغفلة
٣٠	الغضب	الحقارة الذاتيّة وحافزه الاستفزاز

نظم السلوك ومرآة النفس

يا نفسُ ! إذن وضع النّفس في فرن الرياضة، وإشعال نار المجاهدة عليها، ووضعها على سندان المذمّة، والطرق عليها بمطرقة الملامة، كلّ هذه هي لصنع مرآة النّفس، وحصول الفضائل ومكارم الأخلاق، والخروج من قفص الحقارة الذاتيّة إلى فضاء السّموّ الذاتي، ومن عذاب الهواجس العصبيّة إلى جنّة السّكينة، ومن طغيان الشّهوة الجنسيّة إلى تطويعها، حتى تصبح النّفس كالبهيمة المروّضة، مطيعة وخاشعة وخاضعة لربّها، ومفيدة وناجعة لصاحبها.

يا نفسُ ! حتى تصبحي كالمرآة، تعكس مشيئة ربّكِ، وتكون رحمة لكِ لا وبالًا عليكِ. تمامًا كالفيلة الوحشيّة حين تروّض، وبعد اللتيا والتي من الترويض الشّاقّ، تصبح مفيدة لأصحابها، تقتلع الأشجار الكبيرة وتحملها مسافات بعيدة، وتحمل أصحابها إلى حيث يشاؤون، حتى إلى المرتفعات الصعبة[1] ، حيث لا تنفع البغال والحمير ولا حتى الحصان. وإذا تروّضت النّفس ثمّ تطوّعت على طاعات ربّها، كانت كالبهيمة التي تتروّض، ثمّ تتطوّع على طاعات صاحبها.

يا نفسُ ! إنّ نظم السّلوك طبعًا لا يستأصل المعاصي والذنوب، ولا يقتلعها من جذورها اقتلاعًا. فنفسك معك لا يمكن إبادتها، بل يجب فقط ترويضها وتطويعها. فالجهاد الأكبر سمّي جهادًا أكبر، لأنّك أمام عدوّ لا يمكن إبادته والاستراحة منه، كما في الجهاد الأصغر. ولكن يمكن تحاشي سلبيّاته، حتى تختفي وتخفت إلى حدّ أنّك لا تكاد تشعر بها وبآثارها.

يا نفسُ ! فمثلًا الشّهوة الجنسيّة في أوجها، وهي الشّبق وشهوة النّظر وفضوله، تتحوّل بالجهاد الأكبر إلى نشاط الشّهوة الجنسيّة في إطار حدودها الشّرعية فقط، وإلى إرضاء معتدل لحاجة الغريزة الملحّة. كما في حالة الجوع مثلًا، حيث يجب إرضاء الجوع، الذي هو أيضًا حاجة الغريزة الملحّة، بالكفاف، أي بالطعام الذي يسدّ رمقه. وهذا هو المطلوب لا غيره.

---

[1] أنا بنفسي ركبت الفيل إلى مرتفع صعب في الهند.

يا نفسُ ! لقد ذكرتُ آنفًا إذا كان إرضاء الشّهوة الجنسيّة من أجل الشّهوة الجنسيّة، فإنّ المسألة تتحوّل بطرًا وطغيانًا، وتتحوّل من الكفاف إلى الإفراط، مما يسبّب نكد العيش والخوف والحزن. تمامًا كالطعام إذا أفرطت فيه مرضت، وأصابك مختلف الأوجاع والآلام.

يا نفسُ ! هكذا هو البشر ! يميل إلى البطر والطغيان وإلى الإفراط والتفريط، ولو اكتفى مثل الحيوانات بالكفاف في النشاط الجنسي، لما عانى الخوف والحزن والجهل والفقر. لكنّه يطلب التلذّذ فيبتلى، فلا بدّ من التحرّز والصّوم من الجنس.

أثر الدعاء على الإنسان

يا نفسُ ! يمكن أيضًا صقل الحقارة الذاتيّة لاستخراج الإيجابيّات منها، كما في الغضب والرّياء والثأر والانتقام، حين يكون لله خالصًا مخلصًا. فكلي وفوّضي حقارتكِ الذاتيّة ومذلّتكِ وهوانكِ إلى الله، التماسًا لتذليلها وتخفيف آثارها، والعياذ والالتجاء به سبحانه وتعالى منها.

يا نفسُ ! ثمّ تعرضيها جميعًا عليه سبحانه وتعالى تخشّعًا وتضرّعًا، كما في الأدعية المأثورة عن الأئمّة عليهم السلام. فهذا هو الوجه المشرق والجانب الإيجابي من القضيّة برمّتها، وطوبى لمن نال هذه الدرجة العظيمة، وهو الإقرار الصّادق المخلص الكامل بالعجز والمذلّة والمسكنة أمام الله !!!

يا نفسُ ! انظري إلى تذلّل الإمام الحسين عليه السلام وخشوعه وخضوعه أمام الله في دعاء عرفة. وانظري أيضًا إلى تذلّل الإمام عليّ عليه السلام في دعاء الصباح، وانظري أيضًا إلى تذلّل الإمام زين العابدين عليه السلام أمام الله في أدعية الصحيفة السّجاديّة، في صدق وإخلاص وخشوع وخضوع!

يا نفسُ ! لو وجّهت الحقارة الذاتيّة نفسها إلى الله تعالى، بكلّ ما فيها من المذلّة والهوان، والرّياء والمداهنة والشّكّ والغضب والأحقاد، والأنس بالدنيا وحبّه، وحبّ المال والجاه والرئاسة، والطغيان والحسد والغفلة وطول الأمل، والشّبق وشهوة النّظر وفضوله، وشهوة الغيبة وسماعها، وشهوة اللغو وسماعه، وحتى هواجسكِ العصبيّة، واحدة واحدة، وغيرها، وأقررتِ أمامه بعجزكِ عن مغالبتها، وعرضتِ عليه عجزكِ ومسكنتكِ، وفقركِ وزوال نعمتكِ الذي تخافين منه، لكان هو الجهة الصحيحة للرجوع إليه سبحانه وتعالى، بدل أن تستبدّ بكِ الحقارة الذاتيّة والهواجس العصبيّة والشّهوات، وتجرّك جرًّا إلى الرذائل والذنوب والمعاصي.

حماران يتشامّان

يا نفسُ ! ليعرف من لا يعرف أنّ من علامات الشّبق، التكلّم والمزاح عن شهوة النساء، والتغزّل على صورهن في التلفزيون والجرائد وغيرها - والعياذ بالله. وهذه العلامة ظاهرة عاديّة عند التقليديين من المؤمنين، ناهيك عن بقيّة الرجال.

يا نفسُ ! ارجعي إلى فصل سلمان الفارسي في كتابي (خمسة من العرفاء)، وانظري ماذا يقول هذا الرجل الخالد في اليوم الثاني من زواجه، نقلًا عن حبيبه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم:-

فلما أصبح غدا عليه أصحابه وقالوا: كيف وجدت أهلك ؟ فأعرض عنهم ثمّ قال: <<**إنّما جعل الله السّتور والخدور والأبواب لتواري ما فيها. حسب امرئ منكم أن يسأل عمّا ظهر له، فأمّا ما غاب عنه فلا يسألن عن ذلك>>. سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: <<التحدّث عن ذلك كالحمارين يتشامّان في الطريق>>.**

يا نفسُ ! وما أكثر الحمير التي تتشام في الطريق عند التقليديين من المؤمنين، الذين لم يتعرّضوا للتربيّة العرفانيّة السّامية ونظم السّلوك، وبقي إيمانهم في حدوده التقليديّة فحسب !

يا نفسُ ! إنّ الشّهوة غريزة وحاجة طبيعيّة، كما أنّ الجوع غريزة وحاجة طبيعيّة، والدّين لا ينفي الغرائز والحاجات الطبيعيّة البتّة. أمّا الشّبق وفضول النّظر والسّماع، فلا غنى لكِ عن الآتي:

١- وضع النّفس في فرن الرياضة.

٢- إشعال نار المجاهدة عليها.

٣- وضعها على سندان المذمّة.

٤ ـ الطرق عليها بمطرقة الملامة.

٥ ـ صنع مرآة النّفس.

٦ ـ صقل مرآة النّفس وتنظيفها بأنواع الطّاعات والعبادات.

٧ ـ تجاوز العقبة الكؤود من الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطّاعة والأعمال.

٨ ـ الإسلام الجديد.

٩ ـ التكبير على الخلق أربعًا.

١٠ ـ المرور على جنائزهم.

١١ ـ الوصول إلى الحقّ، بعون الحقّ، وبعيدًا عن معاناة مخالطة الخلق.

حتى تصبح غريزتكِ الجنسيّة في أوج لذّتها وسعادتها، كما كنتِ في الجنان مع الحور العين، لأنكِ تعلمين علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين بأنّكِ لا تمارسين هذه اللذّات، بل الله هو الذي يفعل، وهو الذي يسعد، وهو الذي يخلق، وهو الذي يمنّ عليك، وهو الذي ينعم عليكِ، وهو الذي يحسن إليكِ، وهو الذي يجمل إليكِ، وهو الذي يفضل، وهو الذي يكمل، وهو الذي يرزق، وهو الذي يوفّق، وهوالذي يعطي، وهو الذي يغني، وهو الذي يقني، وهو الذي يؤوي، وهو الذي يكفي، وهو الذي يهدي، وهو الذي يعصم، وهو الذي يستر، وهو الذي يغفر، وهو الذي يقيل، وهو الذي يمكّن، وهو الذي يعزّ، وهو الذي يعين، وهو الذي يعضد، وهو الذي يؤيّد، وهو الذي ينصر، وهو الذي يشفي، وهو الذي يعافي، وهو الذي يكرم، وهو الذي يرفعكِ إلى أوج اللذّات، حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر !

صقل مرآة النفس

يا نفسُ ! إنّ عمليّة صقل مرآة النّفس وتنظيفها بأنواع الطّاعات والعبادات قد أخذت من بايزيد خمس سنوات أخرى. كان خلالها مرآة نفسه يراقبها ويصقلها وينظّفها بأنواع الطّاعات والعبادات. بمعنى أنّه حتى بعد اثنتي عشرة سنة من مجاهدات الرّجال، لم تبرز إلى الوجود مرآة صافية شفّافة. ولكنّها على كلّ حال مرآة، أمّا ليس بالضرورة بتلك الشّفافية والصّفاء المطلوبتين.

يا نفسُ ! هذه المرآة المغبّرة المعكّرة استلزمت منه خمس سنوات أخرى حتى تصبح مرآة صافية شفّافة. نعم تصبح النّفس كالمرآة الملوّثة المغبّرة، وتحتاج إلى الصقل والتنظيف بواسطة أنواع الطّاعات والعبادات، تمامًا كالبهيمة التي تروّضت، تحتاج إلى ممارسات طاعات ربّها، حتى تتطوّع وتصبح نافعة ومفيدة في الحياة العمليّة.

يا نفسُ ! إنّ الفضائل ومكارم الأخلاق لا تحلّ مكان المعاصي والذنوب والرذائل مئة بالمئة. فبعد اثنتي عشرة سنة من العمل الشّاقّ والجهد المضني كان بايزيد لا يزال خليطًا من الرذائل والفضائل.

يا نفسُ ! نعم تحقق التواضع، ولكنّه كان لا زال مشوبًا بالكبر والصّلف والغرور والعُجْب. وتحققت فضائل التقوى والمعرفة، والخشوع والخضوع والحبّ والنصيحة، والإيثار والعفو والعدل والزهد، وغضّ البصر والسّمع، وحب الخير والإحسان وحبّ الله، واليقين والإخلاص والإيمان والحلم وغيرها، ولكن كلّها كانت مشوبة بحب الجّاه والمقام والجهل، والطغيان والعداوة والبغضاء والأحقاد، والحسد والانتقام والظّلم وحبّ الدنيا، وشهوة النّظر وسماع اللغو، وحبّ المال وحبّ النّفس، والشّكّ والرّياء والكفر والغضب وغيرها.

ولكن يا نفسُ ! بعد سنوات طوال من أفران الرياضة ونيران المجاهدات، تمكّن بايزيد من استحضار الرذائل، التي كان يعيش فيها، ومعرفتها وتلمّسها، وأيضًا الفضائل التي كان يطمح إليها.

فقد مكّنته هذه المعرفة، والإحاطة بطرفي الصّراط، من مسح الشّوائب وتنظيفها من فوق المرآة، في خلال خمس سنوات، بأنواع الطّاعات والعبادات.

يا نفسُ ! وأهمّ الطّاعات والعبادات التي استعملها هي الذّكر الخفيّ والجهاد الأكبر. وأهم الذّكر الخفيّ هو الاستغفار. يقول الله جل شأنه[1] : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ }.

يا نفسُ ! فكما تلاحظين تعابيرنا شتّى وحسنك واحد ! فالقرآن الكريم يتكلّم عن مقام مرآة النّفس، وعن هؤلاء الصّالحين من عباد الله، من أمثال بايزيد، بعد أن أمضى إثني عشر عامًا في فرن الرياضة والمجاهدات الشّاقة المضنية، حتى صارت نفسه كالمرآة، ينظر فيها كما ينظر في المرآة.

يا نفسُ ! نعم تحقق له التواضع ، ولكنّه كان لا يزال مشوبًا بالكبر والصّلف والغرور والعُجْب. فربّما تكلّم بكلمة تنمّ عن الغرور والكبر، ولكنّه يتنبّه فورًا ويذكر الله ويستغفر لهذا الذنب العظيم ولا يصرّ على فعلته تلك. فهذا الاستغفار وذكر الله هو الذّكر الخفيّ. وتنبّهه فورًا لفعلته وعدم إصراره عليها وذكره الخفيّ الدائم المستمرّ واستغفاره هو العمل، ويجزيهم ربّهم على ذلك مغفرة وجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين.

يا نفسُ ! فلولا أن نفسه لم تكن مرآة لما تنبّه لعمل الفاحشة التي ارتكبها، والظّلم العظيم الذي جنى على نفسه بيديه. ولولا أن نفسه لم تكن مرآة لما ذكر الله واستغفر لذنوبه، ومن يغفر الذنوب إلّا الله. ولولا أن نفسه لم تكن مرآة، لما ظهر منه عدم إصراره على هذا العمل القبيح.

يا نفسُ ! نعم تحقّقت فضيلة التقوى عنده. وما هو التقوى ؟ أن يعلم بعلم اليقين بأنّ كلّ شيء يقع إنّما يقع بمشيئة الله، وأنّ التدبير إنّما هو من عند الله. وإذا وقع وكان ما هو كائن، نتيجة لسعي الإنسان، فهو الله الذي يشعل في سعيه قوّته وحوله. وإذا كان ما هو كائن، نتيجة لعقله، فهو

[1] سورة آل عمران الآيات ١٣٥ - ١٣٦.

الله الذي وهبه هذا العقل. وإذا لم يتحقّق ما سعى إليه أو أرشده إليه عقله - وما أكثر ما تشائين ويشاء الله غيره - فهو امتحان يمتحنه الله به ليربّيه لمقام أسمى.

يا نفسُ ! إنّ بايزيد وأمثاله يطمحون بكلّ وجودهم إلى ما يقوله الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: <<إِلهي أَغْنِني بِتَدْبيرِكَ لي عَنْ تَدْبيري، وَبِاخْتِيارِكَ عَنِ اخْتِياري>>. ولقد فاز والله المخفّون !!!

وما هو التقوى ؟ أن يستقيم العبد على صدق عبوديّته لله. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: << وَأَقِمْني بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ >>.

حديث عنوان البصري

يا نفسُ ! وكما يقول الإمام الصّادق عليه السلام:

في حديث عُنْوَانُ البَصري حين سأله: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ ؟ قَالَ: "ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ، أَنْ لَا يَرَى الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ فِيمَا خَوَّلَهُ اللَّهُ مِلْكاً، لِأَنَّ الْعَبِيدَ لَا يَكُونُ لَهُمْ مِلْكٌ، يَرَوْنَ الْمَالَ مَالَ اللَّهِ يَضَعُونَهُ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَ لَا يُدَبِّرُ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ تَدْبِيراً، وَ جُمْلَةُ اشْتِغَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ تَعَالَى بِهِ وَ نَهَاهُ عَنْهُ، فَإِذَا لَمْ يَرَ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ فِيمَا خَوَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِلْكاً هَانَ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ فِيمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُنْفِقَ فِيهِ، وَ إِذَا فَوَّضَ الْعَبْدُ تَدْبِيرَ نَفْسِهِ عَلَى مُدَبِّرِهِ هَانَ عَلَيْهِ مَصَائِبُ الدُّنْيَا، وَ إِذَا اشْتَغَلَ الْعَبْدُ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ نَهَاهُ لَا يَتَفَرَّغُ مِنْهُمَا إِلَى الْمِرَاءِ وَ الْمُبَاهَاةِ مَعَ النَّاسِ، فَإِذَا أَكْرَمَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ هَانَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَ إِبْلِيسُ وَ الْخَلْقُ، وَ لَا يَطْلُبُ الدُّنْيَا تَكَاثُراً وَ تَفَاخُراً، وَ لَا يَطْلُبُ مَا عِنْدَ النَّاسِ عِزّاً وَ عُلُوّاً، وَ لَا يَدَعُ أَيَّامَهُ بَاطِلًا، فَهَذَا أَوَّلُ دَرَجَةِ التُّقَى، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى[1] : {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

يا نفسُ ! فهل وصل بايزيد إلى التقوى المطلق من دون شائبة ؟ وهل أغناه الله كاملًا من غير نقص بتدبيره الرّباني وباختياره الإلهي ؟ وهل استغنى كاملًا من غير نقص عن تدبيره الناقص واختياره البشري ؟ وهل أقامه الله كاملًا من غير نقص على صدق العبوديّة بين يديه ؟ وهل هو الآن العبد الذي لا يرى لنفسه فيما خوّله الله ملكًا بالتمام والكمال ؟ وهل أصبح جملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه بالكمال والتمام ؟

[1] سورة القصص الآية ٨٣.

يا نفسُ ! هل فعل كلّ ذلك بالتمام والكمال ؟ إنّها والله العظيم شيء صعب جدًّا ! يحتاج إلى عمل الرّجال الشجعان ! فما أكثر الأدعياء والمدّعون وأقلّ العاملون !!!

يا نفسُ ! إنّ بايزيد من العاملين، ونعم أجر العاملين ! وليس من المدّعين. إنّه يرى في نفسه كما يرى في المرآة. إنّه يمشي على الصّراط المستقيم، فيرى على الطرف الواحد كمال الفضائل ومكارم الأخلاق، ويرى على الطرف الثاني ما لديه من هذه الفضائل مشوبة مغبّرة ملوّثة، تعترض طريقها الرذائل في كلّ حين.

يا نفسُ ! لقد عمل خمس سنوات أخرى لتنقية الفضائل ومكارم الأخلاق، التي أكرمه الله بها، من رواسب الشّوائب التي تعلّقت بها. وهذه الفضائل هي التواضع والتقوى والمعرفة، والخشوع والخضوع والحبّ والنصيحة، والإيثار والعفو والعدل والزهد، وغضّ البصر والسّمع، وحبّ الخير والإحسان وحبّ الله، واليقين والإخلاص والإيمان والحلم وغيرها، التي كانت بعد أفران الرياضة مشوبة بحبّ الجاه والمقام والجهل، والطغيان والعداوة والبغضاء والأحقاد، والحسد والانتقام والظّلم وحبّ الدنيا، وشهوة النّظر وسماع اللغو، وحبّ المال وحبّ النّفس، والشّك والرّياء والكفر والغضب وغيرها.

نظم السلوك والعقبة الكأداء

يا نفسُ ! ولكن حتى بعد سبعة عشرة سنة من أفران الرياضة، ونيران المجاهدات، والطّاعات والعبادات، بقيت في هذه النّفس المهذّبة النظيفة المصقولة **عقبة كأداء**، ألا هي عقدة من الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطّاعة والأعمال. وفي السّنوات الخمسة التالية حاول بايزيد البسطامي جهده أن يتجاوزها.

يا نفسُ ! روي أنّ غلامًا عيّر أبا ذر الغفاري في منفاه قائلًا له: < لو كنتَ طيّبًا لما طردكَ عثمان من المدينة >. فأجابه أبو ذرّ رضي الله عنه: <<إنّ أمامي عقبة كأداء إذا تجاوزتها لم أبال بما تقول، وإن لم أتجاوزها فأنت صادق فيما تقول>>.

وربّما قالها تواضعًا، وربّما لقّن الغلام والأجيال القادمة درسًا عظيمًا، ربّما استفاد منه الغلام في مراحل عمره المختلفة، واستفادت منه الأجيال جيلًا بعد جيل.

يا نفسُ ! الحقيقة هو أنّ العارف الواصل، الذي تجاوز العقبة الكأداء، واستقرّ واسترخى في النّفس المطمئنّة، وفي مهاد أمن الله وأمانه، يمكن أن تُنغّص حياته، في بعض الأحيان، عقدة من الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطّاعة والأعمال وغيرها.

فالعارف الواصل في خطر على هذا الصّراط، حتى آخر نفس من حياته. ربّما اعتمد على طاعاته وأعماله، وربّما اعتراه الغرور والتباهي والعُجْب. وإذا استسلم والعياذ بالله لهذه العقدة وقع من على الصّراط في الحضيض.

ومن أعظم من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ! فهو سيّد العارفين الواصلين. رغم ذلك يخاطبه الله بكلّ وضوح في سورة الزمر قائلًا[1] : { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }.

ولا يغيبنّ عن بالكِ يا نفسُ ! ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه في كتاب المجالس المذكور في كتابي (قدوة الفقهاء والعارفين) صفحة ٣٧٤ كالآتي:-

فقد ورد في الآثار أنّ زاهدًا، في الأزمنة السّابقة، عبد الله في زاوية من الجبل، لمدّة ستمائة سنة، ولم يعص الله طرفة عين. وقد وهبه الله هناك شجرة رمّان وعين ماء. فكان يأكل الرمّان من تلك الشّجرة، ويشرب الماء ويتطهّر به من ذلك العين. فطلب من الله تعالى أن يقبض روحه، وهو في حالة السّجود، حتى يقوم من سجدته في يوم القيامة. فاستجاب الله لدعائه.

يقول جبرائيل عليه السلام: لقد وجدتُ في اللوح المحفوظ مكتوبًا، بأنّه في يوم القيامة سيقوم الزّاهد من سجدته، فيخاطبه الملك العلّام أن ادخل برحمتي في جنّتي. فيقول الزاهد يا رب أأدخل الجنة برحمتك ؟ فأين أجر عبادتي التي استمرّت ستمائة سنة ؟

فيأمر الله تعالى ملائكته أن احسبوا له ستين سنة عبادة، في مقابل كلّ رمّان أكله. ويجيئ النداء الإلهي: "وأين شكر النّعم الأخرى ؟"

فيستعر الزّاهد احمرارًا من شدّة الخجل. فيجلجل خطاب العزّة: "خذوه إلى النار". فتعلو صيحات الزّاهد قائلًا: "لقد أسأت السّلوك فارحمني واعف عني". فيتغمّده الله برحمته ويدخله جنته."

[1] سورة الزمر الآية ٦٥.

أتذكّر أنّ شيخي ومعلمي الرّباني صادق العنقا قدّس سرّه كان يقول:- << **هذا الرأس يمثّل الشّيطان في علوّه واستعلائه، وهذا القلب يمثّل الملكوت في منخفضه وخفائه** >>.

وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول:- << **لقد أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه** >>.

يا نفسُ ! إنّ السّير والسّلوك يبدأ من القلب وينتهي بالرأس. يبدأ من القلب لتلقّي الفيض الإلهي، وينتهي بالرأس، وما فيه من المخّ وشبكة الأعصاب التي تتّصل بالنظام العصبي ككلّ، كي يستسلم برمّته ويسلم زمام الأمور للعارف الواصل ويسلم على يديه. يقول الله جلّ شأنه[1]: { ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ }.

[1] سورة الزمر الآية ٢٣.

التمركز على القلب

يا نفسُ ! أهم شيء يفعله السّالك في الطريقة وفي سيره وسلوكه هو التمركز على قلبه، فالقلب هو نافذته على الملأ الأعلى. ومن خلال هذا القلب تنفتح له الأنوار الإلهيّة، وينكشف له روحه الذي هو الكائن الإلهي فيه وعيّنة منه تعالى، والذي نفخه الله جلّ وعلا من روحه . يقول الله سبحانه وتعالى في سورتي <الحجر> و <ص> مخاطبًا ملائكته[1] : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}. ومن هنا يعرف السّالك ربّه، لأنّ الرّوح عيّنة من الملك العلّام عنده.

يا نفسُ ! إنّ السالك يقطع أشواطًا بعيدة في السّلوك من خلال فرن الرياضة والمجاهدات ومرآة النّفس. ولكن تبقى العقبة الكأداء. وما أدراك ما العقبة الكأداء ! فإذا لم يسلم شيطانكِ على يديكِ، ولم يعنكِ الله عليه، فهو دائمًا لكِ بالمرصاد. يضع ملايين الملايين من أحابيله في طريقكِ.

يا نفس ! كيف يكون ذلك ؟ لأنّ الرأس لم يستسلم بعد ! فهكذا خلقنا الله ! شبكة عظيمة من الأعصاب متّصلة بالمخّ الذي مقرّه الرأس، والتي نسمّيها بالنظام العصبي والفسيولوجي. إنّه نظام غير عقلائي ويجانب المنطق. فهو نظام ردود الأفعال للأفعال التي تصدر عن الطبيعة والمجتمع الذي حواليك، وتصلك عن طريق الحواس الخمس، أو بالتحديد تصل المخّ عن طريق الحواس الخمس، ثمّ تصل إلى هذه الشّبكة المعقّدة من الأعصاب عن طريق المخّ.

يا نفسُ ! وماذا يكون ردود الأفعال ؟ أكثرها مفيدة لحفظ حياتك من أي خطر، واستمراركِ في عمرك الذي قرّره الله لكِ في هذه الدنيا، واستمرار النوع البشري. يعمل هذا النظام أتوماتيكيًّا لهذه الأغراض من دون تدخّل منكِ، ومن دون إرادتكِ ومن دون عقلكِ ومنطقكِ.

---

[1] سورة الحجر الآية ٢٩، سورة ص الآية ٧٢.

يا نفسُ ! ولكن هذه الدنيا مزرعة الآخرة، كما يقول الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله. ويقول الله جلّ شأنه[1] : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ }. فمن كان يريد حرث الآخرة ينال الخلود والسّعادة الأبديّة الأزليّة فيه، وينال النّفس المطمئنّة الخالدة، بالإضافة إلى حرث الدنيا. أمّا من كان يريد حرث الدنيا وحده فإنّ هذا النظام العجيب خلقه الله تعالى لحرث الدنيا واستمراريّتها.

يا نفسُ ! وإذا أردنا حرث الآخرة فلا بدّ من نظم السّلوك، حتى ينتهي بنا المطاف أخيرًا إلى أن يسلم على يدينا هذا النظام العصبي برمّته، بقيادة المخّ القابع في الرأس. وإذا دخلنا في نظم السّلوك لم يستسلم لنا هذا النظام العجيب بهذه السهولة، وتكون هي القلعة الأخيرة التي تسقط وتنهار في طريقة السّير والسّلوك.

يا نفسُ ! إنّ النظام العصبي الفسيولوجي نظام استكبار واستعلاء، وبعثرة للقوى العظيمة، التي تجنّدت فينا. وهذا النظام العصبي الخفيّ فينا بقيادة المخّ هو **العقبة الكأداء**. فهو السبب في عقدة الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطاعة والأعمال، التي لا تخضع لمنطق الأنبياء، والتي أخذت من با يزيد خمس سنوات طوال، للتغلّب عليها.

يا نفسُ ! وما أكثر السّالكون الذين يتساقطون من فوق الصراط، كما يتساقط ورق الشجر في فصل الخريف ! وهذا هو الصّراط أو الجسر الممتدّ بين بُعد الله وقربه. وأصناف السّالكين الذين يتساقطون ذكروا بالتفصيل في فصلي (التجلّي الذّاتي) و (قدسيّة الزلفى) في كتابي السّموات السّبع.

---

[1] سورة الشورى الآية ٢٠.

التجلّي الذّاتي

١٢٩١ فَـأَنَا أُحِـبُّ لِقَـاءَ مَـنْ هُـوَ عَاشِـقِي نَظَـرُوا إِلَى وَجْهِي بِقُـدْسِ تُقَاهَـا

١٢٩٢ وَأَنَا أُحِـبُّ جِهَـادَ عَبْـدٍ وَالِهٍ كَـدَحُوا إِلَيَّ بِشَـوْقِهَا وَوِلاهَـا [١]

١٢٩٣ وَأَنَا أَتُـوقُ إِلَى نَحِيـبِ رَقِيْقِنَـا وَأُحِـبُّ فِي مِحْرَابِهَـا بَكَّاهَـا

١٢٩٤ وَأُحِـبُّ مَسْـحَكُمُ عَـلَى عَتَبَاتِنَـا وَجْـهَ التَّـذَلُّلِ فِي كَمَـالِ حَيَاهَـا

١٢٩٥ وَأُحِـبُّ تَـوْقَكُمُ [٢] إِلَى إِنْقَـاذِكُمْ طَفَحَـتْ بَرَاثِنُ وَحْشِهَـا بِـدِمَاها [٣]

١٢٩٦ وَأُحِـبُّ نَبْـذَكُمُ دَنَاسَـةَ رِجْسِـكُمْ عَطْشَـى الطَّهَـارَةِ وَالسَّـمَا وَنَقَاهَـا

١٢٩٧ وَإِذَا بَقِيْـتُمْ خَلْـفَ عَتْبَـةِ [٤] دَارِنَا سَـنَوَاتِ عُمْـرٍ فِي طَوِيـلِ مَـدَاها

١٢٩٨ فَلِأَنَّنَـا نَزِنُـوا بِشَـوْقٍ نَحْـوَكُمْ وَنُحِـبُّ مَنْظَـرَ رِقِّـكُمْ وَبُكَاهَـا

١٢٩٩ وَنُحِـبُّ حُـبَّكُمُ دُخُـولَ حَرِيمِنَـا فَلَـنَحْنُ نَفْـتِنُ عَبْـدَنَا وَهُـدَاها

---

[١] إشارة إلى الآية الكريمة: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ } (سورة الإنشقاق، الآية ٦).

[٢] التوق: الاشتياق.

[٣] المعنيّ بالوحش هنا هو النّفس التي يتوق الوليّ إلى الخلاص منها، وفي دعاء الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي كان يردده كثيرًا: << إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين >>.

[٤] العتبة: أسكفة الباب.

١٣٠٠ وَلَـــنَحْنُ نَمْـــتَحِنُ الْقُلُـــوبَ بِفِتْنَـــةٍ كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ غُثَاهـــا [١]

١٣٠١ كَيْ لا تَجُـــوزَ حَقَائِـــدٌ بَدْرِيَّـــةٌ مِـــنْ سَـــيْفِ آلِ الْمُصْـــطَفَى بِوَغَاهـــا

١٣٠٢ مُتَسَـــرْبِلِينَ بِظَـــاهِرٍ أَثْوَابَنَـــا حُبّـــاً لِإِمْـــرَةِ خَلْقِنَـــا بِرِيَاهـــا

١٣٠٣ كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ وَفِـــيهِمُ مِثْقَـــالُ ذَرَّةِ حُـــبِّهِمْ دُنْيَاهـــا

١٣٠٤ كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ وَفِـــيهِمُ قِطْمِـــيرُ [٢] كِـــبْرٍ أَوْ مَحَبَّـــةِ جَاهَـــا

١٣٠٥ كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ مُهَلَّـــلٌ وَمُكَـــبِّرٌ وَإِلهُـــهُ لَهَوَاهـــا [٣]

١٣٠٦ كَيْ لا يَجُـــوزَ مُهَلَّـــلٌ وَمُكَـــبِّرٌ وَالشِّـــرْكُ فِي أَعْمَـــاقِهِمْ بِخَفَاهـــا

١٣٠٧ كَالـــنَّمْلَةِ السَّـــوْدَاءِ فِي غَسَـــقِ الـــدُّجَى دَبَّـــتْ عَـــلَى سَـــوْدَائِهَا بِصَـــفَاها [٤]

١٣٠٨ كَيْ لا يَجُـــوزَ أُولـــئِكُمْ رَامُـــوا السِّـــوَى وَهُمُ هُمُ فِي حُلَّـــتَيْ فُقَرَاهـــا [٥]

١٣٠٩ كَيْ لا يَجُـــوزَ شَرِيـــدُهُمْ عَـــنْ قَـــوْمِهِمْ أَخَـــذُوا مَلَابِـــسَ دِيـــنِهِمْ مَأْوَاهـــا [١]

---

[١] الغثاء: الهالك والبالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل.

[٢] القطمير: القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة، يقال: (ما أصبت منه قطميرًا) أي شيئًا.

[٣] إشارة إلى الآية الكريمة: { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } (سورة الفرقان ، الآية ٤٣).

[٤] إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: <<الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء>>.

[٥] أولئك الذين أرادوا غيرالله وهم في جبّة الأولياء.

١٣١٠ كَيْ لا يَجُـــوزَ جَهُـــولُهُمْ فِي دِيـــنِهِمْ أَخَـــذُوا قُشُـــورَ الـــدِّينِ مِـــنْ بُلَهَاهـــا

١٣١١ كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ مُنَـــافِقٌ نَكِـــرُوا الْمَعَـــادَ وَطَوّلُـــوا بِصَـــلاها [٢]

١٣١٢ كَفَـــرُوا لَـــفِي أَعْمَـــاقِهِمْ بِنُبُـــوَّةٍ لِمُحَمَّـــــدٍ خَـــــيْرِ الأَنَامِ لِطـــــةَ

١٣١٣ وَتَظَـــاهَرُوا بِاللِّحْيَتَـــيْنِ [٣] وَبُقْعَـــةٍ كَـــبُرَتْ عَـــلَى جَبَهَـــاتِهِمْ سَـــوْدَاها

١٣١٤ كَفَـــرُوا بِعُمْـــقِ فُـــؤَادِهِمْ بِإِلهِهِـــمْ لَعِـــقٌ رِيَاءُ الـــدِّينِ فَـــوْقَ شِـــفَاها [٤]

١٣١٥ وَتَظَـــاهَرَتْ بِالتَّمْتَمَـــاتِ [٥] شِـــفَاهُهُمْ يَا لَيْـــتَهُمْ سَـــبَرُوا [٦] بُطُـــونَ هُـــدَاها

١٣١٦ نَبَـــذُوا مَعَـــالِمَ بَاطِـــنٍ وَتَمَسَّـــكُوا بِمَظَـــاهِرٍ مِـــنْ دِينِهَـــا وَلِحَاهـــا [٧]

١٣١٧ جَهِلُـــوا الْحَقَـــائِقَ وَالدِّيَانَـــةَ كُلَّهَـــا وَتَمَسَّـــــكُوا بِظَـــــوَاهِرٍ وَغُثَاهـــــا

١٣١٨ قَـــالُوا وَجَـــدْنَا هكَـــذَا آبَاءنَا كَسَـــبُوا لِمَـــنْ آبَائِهِـــمْ عَـــدْوَاها [٨]

---

[١] التجأوا إلى ملابس الدّين بنيّة التميّز والجاه الدنيوي وبسبب انحطاط منزلتهم الاجتماعيّة.

[٢] جهلوا المعاد وطولوا بصلاتهم.

[٣] اللحية: شعر الخدّين والذّقن.

[٤] إشارة إلى كلام الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء: <<والدِّين لعقٌ على ألسنتهم>>.

[٥] تمتم في الكلام: عجّل فيه ولم يفهمه.

[٦] سبرها: عرف قدر سعتها.

[٧] لحى: جمع لحية.

[٨] عدوى العقيدة: فساد العقيدة.

١٣١٩ كَيْ لا يَجُــوزَ عَــلَى الصِّــرَاطِ عُتُلّهَــا[١] فِي خُلْقِــــــهِ وَلَــــــوِ ادَّعَى تَقْوَاهــــــا

١٣٢٠ كَيْ لا يَجُــــــوزَ وَفِــــــيهِمُ عَصَــــــبِيَّةٌ مِــــنْ لَــــوْنِ مِــــنْ قَوْمِيِّــــةٍ وَدِمَاهــــا

١٣٢١ وَحَمِيَّــــةٌ[٢] مِــــنْ جَاهِلِيَّــــةِ عَهْــــدِهَا[٣] قَبَلِيَّــــــــةٌ لُغَوِيَّــــــــةٌ بِحِجَاهــــــا[٤]

١٣٢٢ كَيْ لا يَجُــــــوزَ وَنَفْسُهُــــــمْ مَحْشُــــــوَّةٌ بَعْــــدَ الْمَطَــافُ لَعَــنْ صَــفَاءِ (بَــلَى) هــا[٥]

---

[١] العتل: الجافي الغليظ.

[٢] الحمية: الأنفة والنخوة.

[٣] إشارة إلى الآية: { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ }(سورة الفتح الآية ٢٦).

[٤] يعني عقولهم قبليّة ومتعصّبة للغة.

[٥] أي أنّ نفسه محشوة بالاكتسابيّات التي أبعدته عن صفاء الفطرة وعن صفاء الميثاق الذي ذكر في الآية: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } (سورة الأَعراف الآية ١٧٢)

قُدْسِيَّةُ الزُّلْفَى

١٣٢٣ فَعَـلَى الصِّـرَاطِ تَسَـاقَطَ الـرَّهْطُ [١] الَّـتِي عَلِقَـــتْ [٢] بِغَـــيْرِ اللهِ فِي نَجْوَاهـــا

١٣٢٤ وَلِـــرَوْمِهِمْ فِي الرُّشْـــدِ غَـــيْرَ إِلهِهِـــمْ وَلِغَفْـــلَةٍ عَـــنْ ذِكْرِهَـــا وَرِضَـــاها

١٣٢٥ وَلِطُـــولِ آمَـــالِ الْحَيَـــاةِ بِزُخْـــرُفٍ وَبِزِينَـــةٍ وَمَتَـــاعِ عَـــيْشٍ ثَرَاهـــا

١٣٢٦ وَغُـــرُورِهِمْ بِمَتَـــاعِ دُنْيَـــاً زَائِـــلٍ إِسْـــتَنْكَفُوا عَـــنْ سُجْـــدَتَيْ بُسَـــطَاها

١٣٢٧ وَلِـــذَرَّةِ الطُّغْيَـــانِ فِي أَرْوَاحِهِـــمْ حَسَـــداً وَحِقْـــداً نِقْمَـــةً بَغْضَـــاها

١٣٢٨ وَلِحِـــرْصِهِمْ فِي جَمْـــعِ مَـــالٍ زَايَـــدَتْ [٣] حَاجَـــاتِهِمْ وَعَدِيمَـــةٌ جَـــدْوَاها

١٣٢٩ وَتَنَافُسَـــاتٍ فِي رَحَى دُنْيَائِهَـــا وَلَحُـــبُّ دُنْيَـــاً رَأْسُ كُلِّ خَطَاهـــا [٤]

١٣٣٠ وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ مَـــيْلِهِمْ لِفُـــرُوجِهِمْ وَإِثَارَةٍ فِي مُشْـــتَهَى رُؤْيَاهـــا

١٣٣١ وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ شَهْـــوَةٍ فِي غَيْبَـــةٍ وَفُضُـــولِ لَغْـــوِ كَلَامِهَـــا وَهُرَاهـــا

١٣٣٢ وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ مَيْـــلِ سَمْـــعِ هُرَائِهَـــا دَلَّـــتْ عَـــلَى فَضَـــلاتِ مَيْـــلِ هَوَاهـــا

---

[١] الرهط: القوم.

[٢] علق به: تعلق.

[٣] زايده: غالبه في الزيادة فغلبه.

[٤] إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: <<حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة>>.

١٣٣٣ وَتَفَـــــاخُرٍ بِالإِكْتِسَـــــابِ لِمَالِهَـــــا وَلِعِلْمِهَـــــا وَمَقَامِهَـــــا وَلِجَاهـــــا

١٣٣٤ وَتَفَـــــاخُرٍ فِي حُـــــبِّ أَوْلادٍ وفِي أَشْخَـــــاصِهِمْ كِـــــبْراً وَفِي خُيَلَاهـــــا [١]

١٣٣٥ وَلِـــــذَرَّةٍ مِـــــنْ جَهْلِهَـــــا بِمَـــــدارِهَا أَبْقَـــــتْ عَـــــلَى دَوَرَانِهَـــــا بَرَحَاهـــــا [٢]

١٣٣٦ مَنَعَـــــتْ نُفُـــــوذَكُمُ لَمِـــــنْ أَقْطَارِهَـــــا وَوُلُـــــوجَكُمْ فِي القُـــــدْسِ فِي مَأْوَاهـــــا

١٣٣٧ وَدُخُـــــولَكُمُ عَتَبَاتِنَـــــا وَحَرِيمَنَـــــا وَوُرُودَكُمْ فِي القُـــــدْسِ فِي زُلْفَاهـــــا

١٣٣٨ حَـــــتَّى تُحَلُّـــــوا مِـــــنْ أَسَـــــاوِرِ فِضَّـــــةٍ [٣] وَتُلَبَّسُـــــوا مِـــــنْ كِـــــبْرِيَاءِ رِدَاهـــــا

١٣٣٩ وَتُلَبَّسُـــــوا أَخْلاقَنَـــــا وَصِـــــفَاتِنَا وَتُعَلَّمُـــــوا بِكَرَامَـــــةٍ أَسْمَاهـــــا

---

[١] إشارة إلى الآية: { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } (سورة الحديد، الآية ٢٠).

[٢] أي أنّها جاهلة بمدارها حول محوريّة الدنيا، وتسعى بكلّ جهد للإبقاء على هذا الدوران كدوران الرّحى. وهذا الجهل وذاك المسعى يمنعانها من رؤية الآخرة والعاقبة ومن ثمّ نفوذها من أقطار الدنيا إلى عوالم القدسيّة والزلفى.

[٣] إشارة إلى مقام الأولياء ومقام جمع الجمع في الآية الكريمة: { وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}(سورة الإنسان، الآية ٢١).

غوامض اللاوعي

يا نفسُ ! اعلمي أنّه توجد هناك هواجس عصبيّة، هي في الواقع جروح في النظام العصبي، وتسمى العقد النّفسيّة، يرجع عهدها إلى أيام الطفولة، في غياب وعي الطفل. فتبقى في منطقة اللاوعي تهدّد الإنسان دائمًا، وتبقى بشكل الحركات اللاإرادية والخواطر والهواجس العصبيّة، التي تشغل حيّزًا من روح الإنسان وأفكاره وخواطره، بل وتلوّثها. ويأتي اصطلاح (نفي الخواطر) في العرفان من هذه الحقيقة، وهي آخر قلعة تواجهنا في هذا الجهاد وهذه الحرب الضروس.

يا نفسُ ! وخلال أفران الرياضة ونيران المجاهدات يكون العارف قد أبلى بلاء حسنًا، وواجه معظم الحجب الكثيفة والتراكمات الرهيبة، التي تغطّي جذور العقد النّفسيّة، التي ترجع إلى أيام الطفولة، والتي تكوّنت في غياب وعي الطفل، واستقرّت عنده في منطقة اللاوعي. نعم يكون العارف قد غالبها وصارعها، ثمّ خرق معظمها، وطوّع آثارها وأعراضها.

يا نفسُ ! ولأنّ العارف يطمح إلى العبوديّة المطلقة لله، ولا يقبل بعبوديّة شيء غيره، حتى إذا كان هذا الشيء هو الهاجس العصبيّ في اللاوعي، لذلك لا يرتاح له بال، ولا يقرّ له قرار، حتى يكشف غوامض اللاوعي بأنوار الذّكر الخفيّ، وينفذ نفوذًا في منطقة اللاوعي، ويسلّط الأضواء على منطقة من المخّ، التي ترسل هذه الرسائل الكيماويّة والكهرومغناطيسيّة لا إراديًّا إلى النظام العصبي، ومن ثمّ يسيطر على هذه الرسائل إيجابيًّا، ويشفي الجروح في النظام العصبي، بعون الله جلّ وعلا، الذي يتولّى الصّالحين من عباده.

ولماذا ترسلها لا إراديًّا ؟

القصّة هي أنّ الناس، وخصوصًا الإنطوائيّين الحسّاسين منهم، كما يسمّيهم علم النفس الحديث، تعرّضوا في طفولتهم لأحداث، أخلّت بناحية الأمن والأمان في داخلهم وفي بواطنهم.

فكانت تصل هذه الرسائل إلى المخّ، في منطقة معيّنة منه، التي لم تقدر على تحمّل مشاعر رهيبة من القلق والاضطراب، التي ساورتها جرّاء هذه الأحداث.

والآليّة التي تعمل في الإنسان، هو أنّه في حياة اللاوعي من الطفولة، التي تفتقد فيها المعرفة والإرادة، ترسل هذه المنطقة من المخّ مشاعر رهيبة وحركات لا إراديّة، عبر النظام العصبي، إلى مناطق معيّنة في البدن، والتي تشكّل عقدة نفسيّة، تؤذي الإنسان دائمًا في حياته، وتنغّص عليه سعادته.

يا نفسُ ! إنّه في أيام المراهقة يواجه الإنسان خواطر رهيبة جديدة، وخصوصًا في الفترة التي تتصادم فيها الشّهوة الجنسيّة، التي استيقظت فيه حديثًا، مع العقل والمنطق.

وهذه الإضافات الرهيبة تتراكم وتشكّل عقدة أخرى، ثمّ تزيد التراكمات حتى تتشكّل منها الجبال من القمامات والأقذار. وتتجلّى هذه العقد عادة في سلوكيّات الإنسان بشكل حادّ، إلّا من رحم ربي.

يا نفسُ ! وإذا دخل الإنسان في طريقة السّير والسّلوك، ونفذ في منطقة معرفة النّفس، فإنّ سلوكيّاته تتغيّر وتتعدّل، ولكن بحالة نسبيّة، إلّا من رحم ربي، وأدخله ربّي إلى مقام النّفس المطمئنّة، مع أولئك الذين لهم الأمن وهم مهتدون.

يا نفسُ ! وهذا غير ممكن إلّا إذا تخطّى السّالك العقبة الكأداء برمّتها، بعد أفران الرياضة ورؤية مرآة النّفس والعبادات والطّاعات.

يا نفسُ ! وربّما أدّت هذه التراكمات من العقد إلى الأمراض النّفسيّة، والتي تعالج أعراضها فقط في المستشفيات. أمّا الجذور فتبقى عند الإنسان، رغم دراساته العالية في الجامعات وغيرها، لأنّها تبقى وراء الحجب الكثيفة من التراكمات، بحيث لا يمكن رؤيتها إلّا لمن رحم ربي.

يا نفسُ ! وعند حصول المعرفة والإرادة، ربّما في الكهولة، يتعامل بعض السّالكين مع الحجب الكثيفة، ويحاولون التغلّب على الحجب، حجابًا حجابًا، لأنّه لا يمكنهم التعامل مع الجذور.

أمّا الجذور فتبقى تراوح مكانها، لأنها غائبة عنهم، وهي تهدّدهم وتتوعّدهم من وراء الحجب الكثيفة. والإنسان يعيش مهدّدًا في أمنه وأمانه وفي ظلمات من الظّلم. يقول الله جل شأنه[1] : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }.

يا نفسُ ! والذي لم يحظ بشرف الإيمان، تتشبّع روحه بهذه العقد وتراكماتها الرهيبة، فيحمل أثقالًا منها إلى النشأة الأخرى في الدار الآخرة، وهو البرزخ بعينه. يقول الله سبحانه وتعالى[2] : {وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }.

[1] سورة الأَنعام الآية ٨٢.

[2] سورة المؤمنون الآية ١٠٠.

إلهي تولّني بسكينتك وصبغتك

يا نفسُ ! فكيف يرضى العارف بهذه الأصفاد والسّلاسل والأغلال تكبّل روحه وتقيّده ! وما عقدة الغرور والتباهي والعُجْب والاعتماد على الطّاعة والأعمال، التي تكلّم عنها بايزيد، إلّا رواسب وبقايا من الحجب الكثيفة، التي تغطّي جذور عقد النّفس، وتلفّها بحيث تستقرّ في وسطها، لا يراها الرائي إلّا من رحم ربي.

يا نفسُ ! ثمّ أنّ النّفس المطمئنّة هي النّفس التي تخطّت وتجاوزت هذه العقبة الكأداء، ونالت السّكينة المطلقة. فكيف يصل العارف إلى هذه السّكينة المطلقة ؟ وما أكثر الأدعياء والمدّعون وما أقلّ العاملون !!!

يا نفسُ ! ولأنّ العارف يطمح إلى السّكينة المطلقة، والنّفس المطمئنّة، والأمن والأمان، الذي يتحقّق بعد تجاوز بقايا ورواسب الظّلم الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام الآنفة الذّكر، فهو لا يرتاح له بال، ولا يقرّ له قرار، حتى يصل إلى جذور العقد النّفسيّة، في مناطق المخّ المختصّة، ويداويها بإرادته وهمّته وعزيمته وذكره الخفيّ: << **إلهي تولّني بسكينتك وصبغتك** >> ، والتي هي في الواقع إرادة الله وهمّته وعزيمته وذكره سبحانه وتعالى، الذي يتولّى الصّالحين من عباده.

فتنتشر السّكينة في هذه المناطق البائسة، وتشفيها كالمرهم الذي يشفي الجروح، وتكون بردًا وسلامًا على نيران هذه الجذور من العقد النّفسيّة.

يا نفسُ ! إنّ الأحداث التي تقع وقت الطفولة، وتخلّ بناحية الأمن والأمان في داخل الإنسان وبواطنه، وتستقرّ وتترسّخ في اللاوعي بشكل عقدة نفسيّة، تفرز هواجسها العصبيّة من منطقة خاصّة في المخّ، بشكل حركات لا إراديّة.

يا نفسُ ! وإذا نظر العارف في هذه المرآة جيّدًا، أحسّ بمرارة المشاعر الرهيبة في هذه المنطقة بالذات من المخّ، والتي تتغطّى وتتهرّب من القلق والاضطرابات، وتشغل نفسها بالحركات اللاإراديّة. فإذا وهبها الله السّكينة توقّفت هذه الحركات، واختفت التّوترات، واسترخى البدن خشوعًا وخضوعًا لله.

نفي الخواطر

يا نفسُ ! إنّ الأحداث التي تقع في أيام المراهقة، إثر اضطرابات وإحباطات عاطفيّة، وتخلّ بناحية الأمن والأمان في داخل الإنسان وبواطنه، وتستقرّ وترسّخ في اللاوعي، فهي تشكّل عقدًا نفسيّة أخرى على أنقاض العقد القديمة.

يا نفسُ ! وهذه العقد الجديدة تفرز هواجسها العصبيّة من منطقة أخرى في المخّ، لأنّها في شريحة أخرى سطحيّة من اللاوعي، وتكون على شكل خواطر مؤذية. وهذه الخواطر هي في مرحلة العقبة الكأداء تحتاج إلى عمليّة المراقبة الدائمة، وعمليّة عرفانيّة أخرى تسمّى: < **نفي الخواطر** >.

ولنضرب مثلًا كيف أنّ المخّ ورسائله إلى النظام العصبي، لا يعمل بطريقة عقلائيّة، إذا كنّا في عمل حرث الآخرة. فلربّما سمع الشّاب المراهق يومًا ـ في عهد الجهل والطيش ـ من أحد الأفراد في المجتمع <ربّما مزاحًا وربّما باحتقار> بأنّه فقير بائس. فتأخذه العزّة بالإثم والعار الموهوم، وتنمو < عقدة الحقارة > في نفسه، يظنّ بموجبها أنّ الفقر عار كبير، ويأخذه العار والشَّنَار من ذلك، ويسلك في حياته بطريقة غير عقلائيّة، لكي يثبت دائمًا أنّه غنيّ وليس بحقير، وذلك بالتفاخر والمباهاة بما عنده، حتى ينفّس عن عقدة الحقارة التي يعاني منها. وما أكثر من يقترف الظّلم والسّرقة والغشّ والآثام الأخرى، و كلّها ترجع إلى عقدة الحقارة عندهم.

وربّما سمع الشاب المراهق يومًا ـ وذلك في أيام الجهل والطيش أيضًا ـ أنّه بائس منبوذ في المجتمع، لا جاه ولا مقام له < ربّما مزاحًا وربّما باحتقار > فيأخذه العار الموهوم، وتتكوّن عنده < عقدة العظمة >، يتصوّر بموجبها أنّ عدم الجاه والمقام عار كبير. ومن منطلق العار والشَّنَار يتصرّف في حياته بطريقة غير عقلائيّة، لكي يُثبت دائمًا أنّه الأعلى، وذلك بحبّ الرئاسة واحتقار الآخرين والقتل وسفك الدماء، حتى ينفّس عن عقدة العظمة التي يعاني منها.

وربما سمع الشاب المراهق يومًا من رفاقه ـ في أيام جهالته طبعًا ـ أنّ لا رجولة عنده < ربّما مزاحًا وربّما باحتقار >، فتنمو عنده < العقدة الجنسيّة >، يحسب بموجبها أنّ عدم الرجولة عار كبير، ودفعًا للعار والشَّنَار الموهوم، الذي يظنّه ظنًّا، يتصرّف في حياته بطريقة غير عقلائيّة، لكي يُثبت دائمًا أنّه رجل، وذلك بالإنغماس في الفواحش والفضائح وكثرة الجنس، حتى ينفّس عن هذه العقدة التي يعاني منها.

يا نفسُ ! والأكثريّة لا يدركون معاناتهم الأليمة من عقد الحقارة والعظمة والجنس، وهم قد اقتنعوا في قرارة أنفسهم بفضيحة العار والشَّنَار الموهوم التي تعيث في بواطنهم فسادًا.

وهم منغمسون ومستمرّون في اقتراف ذنوبهم وآثامهم لإطفاء هذا العار الموهوم، بالتفاخر والتباهي والظلم والسّرقة والغشّ، وحبّ الرئاسة والجاه والمقام، واحتقار الآخرين، والقتل وسفك الدماء، واضطهاد الآخرين، واقتراف الفواحش والفضائح وغيرها.

يا نفسُ ! أمّا الأقليّة الذين تعاملوا مع الذنوب والآثام، خلال مسيرتهم الطويلة في السّير والسّلوك، فَهُم يرون الأشياء على حقيقتها. يرون أنّ النظام العصبي، بقيادة المخّ القابع في داخل الرأس، غير عقلائي تمامًا، ولا يستجيب لنداء المنطق والعقل، فهو مصرّ على جهله وطيشه وظنونه الوهميّة، لا تزعزعه الإرادات ولا تزلزله العزائم، وهو حقًّا العقبة الكأداء في طريقهم إلى الحقّ. فمواجهة النظام العصبي هذا بقيادة المخّ ليست بالشيء الهيّن السّهل البتّة.

يا نفسُ ! بطبيعة الحال هذا النمط النادر من الناس قد بدأوا في هذه الحرب الشرسة مع النظام العصبي، منذ أوائل حياتهم حتى قبل السّير والسّلوك، ثمّ استمرّوا في هذه الحرب تدريجيًّا بعد دخولهم السّير والسّلوك، في عهود الرياضة ومرآة النّفس والعقبة الكأداء. وربّما هذه البصيرة في بعض الناس تجرّهم جرًّا إلى السّير والسّلوك إلى الله تعالى.

يا نفسُ ! أمّا في مرحلة العقبة الكأداء، فالمطلوب حقًّا نهاية هذه الحرب بانتصار العارف على النظام العصبي، وبهزيمة هذا النظام آخرًا وأخيرًا، بمعنى أن يُسلم هذا النظام العصبي، الغير العقلائي، على يديك ويعينك الله عليه، كما قال الرسول الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم: << أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه >>.

مهزلة غير عقلائية

يا نفسُ ! أليست هذه مهزلة غير عقلائيّة يضحك منها حتى الأطفال ! رغم ذلك فإنّ أكثريّة البشر مبتلون بها ويعانون منها، لأنّهم واقعون تحت استبداد النظام العصبي، تغذّيهم ذنوبًا وآثامًا من قبيل الكبر والجهل والظّلم والغفلة والأحقاد والحسد والانتقام ، وحبّ الدنيا والحرص والشّبق والشّك والرّياء والغضب، وحبّ المال والغنى وحبّ الجاه والمقام والرئاسة وغيرها.

يا نفسُ ! أليست هذه هي المؤامرة الكبرى، تشترك فيها الذنوب والآثام والنظام العصبي، تتفاعل مع بعضها البعض كالنار في الهشيم ! أليست هذه هي النار التي وقودها الناس والحجارة ! أليست هي[1] الْحُطَمَةُ، نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ، إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ!

يا نفسُ ! ولو كشف لكم الغطاء لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ[2] ! والنّعيم لا يتاح إلّا لمن عتقت رقابهم من النار. هذه النار التي يحملها الإنسان في طيّاته، وبدل أن يسعى في إطفائها، يغذّيها ليل نهار بوقود الجهل والأوهام والظلم والذنوب والآثام.

يا نفسُ ! وهذه هي المهزلة الكبرى في الوجود، لا ينجو منها إلّا الأنبياء والأئمّة المعصومون، ومن كان على نهجهم من الصدّيقين والقدّيسين والأولياء وعباد الله الصالحين والعرفاء الواصلين.

---

[1] سورة الهمزة الآيات ٥ - ٩.

[2] سورة التكاثر الآيات ٦ - ٨.

يا نفسُ ! فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ[1] ، وأولئك هم ! وهذه هي مهزلة غير عقلائيّة يدور في دوّامتها كلّ البشر إلّا من رحم ربي - دوّامة ردود الأفعال العصبيّة[2] ، وهذه هي العقبة الكأداء حقًّا.

يا نفسُ ! وما أكثر الأدعياء وأنصاف العلماء الذين إذا كلّمتهم عن العرفان أعرضوا عنك تكبّرًا، ونقلوا لكِ قول الإمام الخميني: العرفان هو ما تقرؤونه من أدعية أهل البيت عليهم السلام. إذن ماذا يقول لكم الإمام الخميني ؟ إذا تكلّم فوق هذا شتمتموه، كما شتمتم من قبل العلّامة الطباطبائي وعلي ميرزا القاضي وغيرهم من العرفاء.

هل فهمتم من هذا أنّ العرفان مجرّد قراءة ؟ فلو طبّقتم مضامين هذه الأدعية الشريفة لعرفتم مدى صعوبتها. نعم العرفان هو التطبيق الكامل لمضامين هذه الأدعية الشريفة، ولا ينال هذا الشّرف العظيم إلّا الفائزون، الذين زحزحوا عن النار وأُدخلوا الجنّة، والذين تعرّضوا قبلها لفرن الرياضات ومرآة النّفس، وأخيرًا تجاوزوا العقبة الكأداء التي هي وحش المسيرة في قول الشاعر[3] :-

وَحْـــشُ الْمَسِـــيَرةِ إِنْ تَرَوَّضَ طَبْعُهَـــا عَاشَـــتْ مَشِـــيْئَةَ رَبِّهَـــا بِسُـــرَاها [4]

فَرِيَاضَـــةُ الـــوَحْشِ الْمُبِـــينِ بِجَهْرِهَـــا وَبِســـــرِّهَا شَرْطٌ لِنَيْـــلِ بَقَاهـــا [5]

---

[1] سورة آل عمران الآية ١٨٥.

[2] ذكر في كتاب السّموات السّبع للمؤلف في شرح فصل (سرّ الله العلي) :- << أي ردود فعل جهازنا العصبي قبال غيرنا وكلّها غير عقلائيّة، وتنبع من توجّهاتنا إلى الأغيار، فلا بدّ من العودة من الأغيار إلى حقيقة أنفسنا، كما قال الرسول الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم: << من عرف نفسه فقد عرف ربه >>، وهذا من اختصاص العرفان العملي.

[3] السّموات السّبع فصل (نفي الكثرة الموهومة) للمؤلف.

[4] يعني الفرس الوحشي إذا رُوِّضَ يسير حسب مشيئة صاحبه، وكذلك النّفس البشريّة.

[5] يعني رُوِّضَ الوحش رياضة تامة في الظّاهر والباطن بسبب فناءه في راكبه ثمّ البقاء في مستوى آخر كما يريده سيّده.

القلب السليم

يا نفسُ ! وبعد اثنتين وعشرين سنة تطهّر بايزيد من الذنوب والمعاصي والرذائل، وانكشف السّواد من قلبه، بحيث لم تبق فيه عقدة أو نقطة سوداء. وأسلم إسلامًا جديدًا حيث قال: << لا إله إلّا الله >>، لا بلقلقة اللسان، ولكن بقلب سليم، بحيث تخلّص من أنواع الأمراض والعاهات.

نفى غير الله في كلّ ذرّة من وجوده بقوله قولًا وعملًا: << لا إله >>. وأثبت الله وحده في كلّ ذرّة من وجوده، ولم يُشرك معه أحدًا، بقوله قولًا وعملًا: << إلّا الله >>. يقول الشاعر:-

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

يا نفسُ ! وهذا الإسلام الجديد هو كمال التسليم إلى الله. ولما تحقّق هذا التسليم المطلق لله، وجّه وجهه للذي فطر السّموات والأرض حنيفًا مسلمًا، كما حصل لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، واستقرّ واسترخى في مهاد أمن الله وأمانه.

يا نفسُ ! وماذا بعد الإسلام الجديد ! هل يوجد في ذرّات وجوده غير الله ؟ حاشا وكلّا ! خرج من التّكاثر، ولم يشعر بالخلق حوله رغم مخالطتهم وقضاء الحياة اليوميّة معهم. وجد الخلق كلّ الخلق أمواتًا وكبّر عليهم أربعًا، بمعنى أنّه كان لا يبالي ولا يعبأ بهم. ومرّ على جنائزهم، بمعنى أنّهم قد أصبحوا من الماضي بالنسبة له، وقد تضاءلت أعيانهم في نظره، وتخافتت ذكرياتهم في ذاكرته، كما قال الشاعر:

شخوصٌ وأشباحٌ تمرُّ وتنقضي وتفنى جميعًا والمحرّك باقي

أو بمعنى آخر توقّف عن العيش معهم في اهتماماته ورغباته، وعن معاناة مخالطتهم. واستغنى عن الخلق، ووصلت قناعته الذّروة، وأخلَص في صدقه، حتى جمع الزبارج من متاع الدنيا، وربطها بسلاسل القناعة، ووضعها في منجنيق الصّدق، ثمّ قذف بها في بحر اليأس.

يا نفسُ ! لقد سما با يزيد ووصل إلى الله بعون الله تعالى. بمعنى أنّه ركّز كلّ توجّهاته على الله وحده لا يشرك معه أحدًا، بحيث وصل واتّصل أخيرًا مع الله، لا فرق بينه وبين حبيبه، كما في حديث الشّراب للإمام علي عليه السلام: << إنَّ لِلّهِ تَعالى شَراباً لِأَولِيائِهِ، إذا شَرِبوا سَكِروا، وإذا سَكِروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خَلَصوا، وإذا خَلَصوا طَلَبوا، وإذا طَلَبوا وَجَدوا، وإذا وَجَدوا وَصَلوا، وإذا وَصَلُوا اتَّصَلوا، وإذَا اتَّصَلوا لا فَرقَ بَينَهُم وبَينَ حَبيبِهِم >>.

يا نفسُ ! إنّه انقطع إلى الله تعالى بكلّيّته، وتغمّده الله برحمته، وأرجع الخلق إليه، **كما نقل معروف الكرخي عن ابن السمّاك، وأيّده الإمام الرضا عليه السلام.**

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصف هذا الإنسان الضعيف الضالّ:

اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ، وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا.

قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمُهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا.

فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ.

فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ.

ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لَا يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلَا يُجِيبُ دَاعِياً.

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
www.taqimusawi.com